نظرية جذور الأخلاق

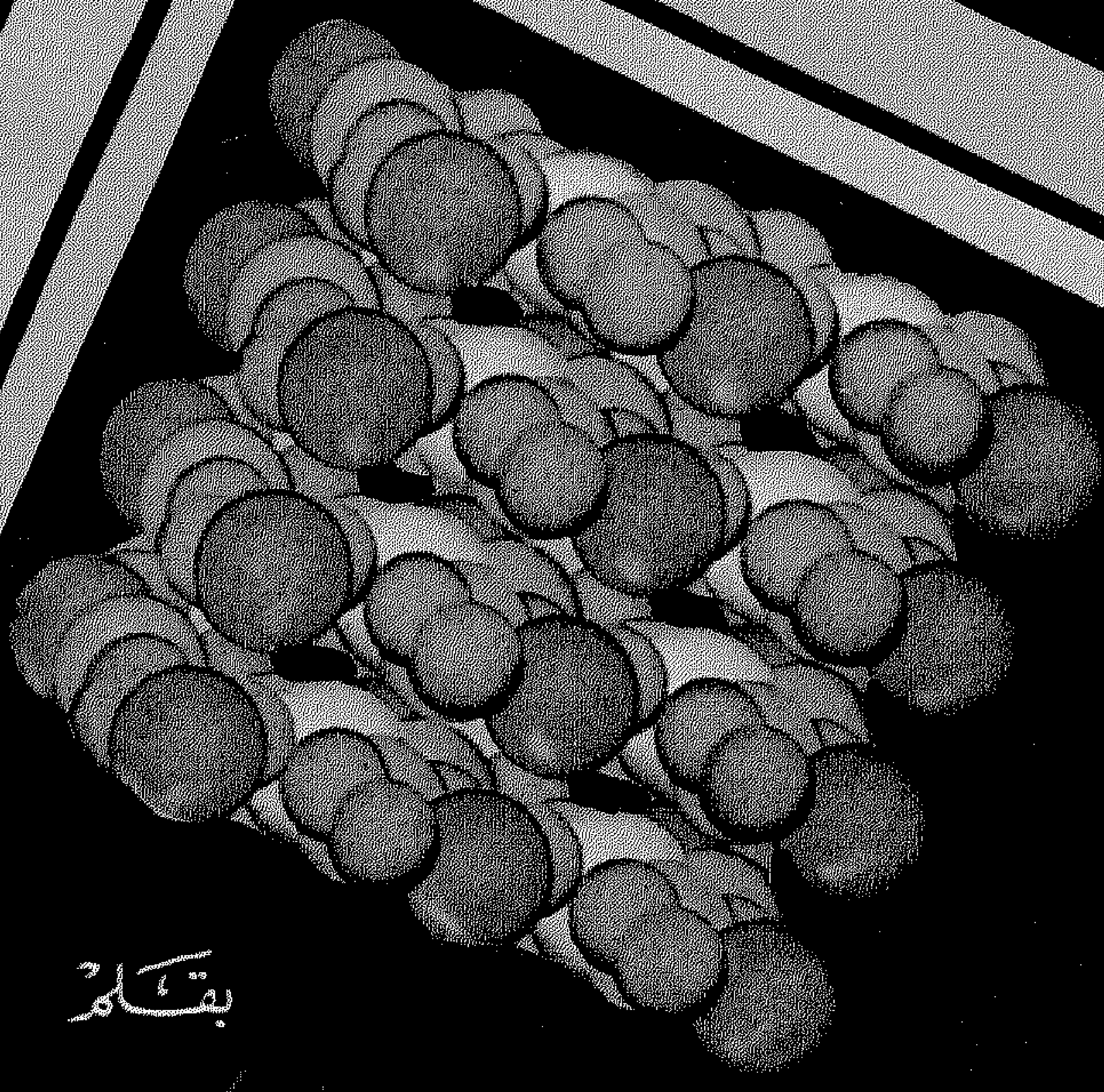

بقلم

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

نظرية
جذور الأخلاق

نظرية
جذور الأخلاق

بقلم

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

نظرية جذور الأخلاق

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المؤلف ص.ب ٥٤٢٥

هاتف ٧٧٤١١٣

تصميم الغلاف : م. نعيم الجابي

طبع في مطبعة نَضَـر ٢٢٢٣٦٣

تنضيد وإخراج الرضوان

الإهـــــداء

أهدي هذا البحث لمن ألقى السّمع وهو شهيد . .

بسم الله الرحمن الرحيم

[ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها *
قد أفلح من زكاّها * وقد خاب من دَسَّاها *]

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدّمة مـوجزة
حـول نظريّة جـذور الأخلاق

ممّا كتبه « هيوبرت ريفز » عالم الفيزياء الفلكية الشهير (نحن مكّونون من خلايا، مُكّونة من جُزيئات ، هي بدورها مكوّنة من ذرات ، متشكلة من جسيمات أولية . وإذا ما أقتفينا نَسَبنا ، فعلينا أن نرجع إلى هذه الجُزئيات والذرات والنوّى ، إلى بدء الكون قبل (١٥) مليار سنة . كان الكون مُتجانساً ، من جنس واحد وطبيعة واحدة *Homog Enewy* ، وتاريخه هو تاريخ نموّ وتعقيد إنه يشبه الأبجديّة إلى حَدٍ ما ، حيث تُصفُ الأحرف في كلمات وجُمل) .

يريد هذا العالم إفهامنا أن الإنسان مادة ، وليس هو بكائن غريب عن هذا الكون . وإننا لنؤيد فهمه هذا ولا نستغربه . لأن في حياتنا العادية اليومية دليلاً مؤيّداً لهذا الموضوع،وهو أن قوام حياتنا متشكل ممّا تنبته الأرض وما يتنزّل من السّماء . فغذاؤنا بمختلف أنواعه وأشكاله لا يكون مصدره إلاّ هذه الأرض أو هذه السماء . وهذه الأرض والسماء مادة كلّها . ثم إنه قد ثبت علمياً أن جسم الإنسان يتجدد باستمرار بحيث يصبح كل سنتين إلى ثلاث سنين جسماً جديداً غير الذي كان من قبل . فخلايا جسم الإنسان تتجدّد باستمرار وما ظاهرة قصّ الشعر المستمرة على فترات ، وقصّ الأظافر المستمر على فترات أيضاً إلا دليل مادي على هذا التجدّد الحادث باستمرار في عالم خلايا جسم الإنسان .

هذا معناه أن جسم الإنسان مادة من مواد هذا الكون . تنبض بالحياة وأن الحياة أصلاً هي ظاهرة هذا الكون الرّحب . فلا يوجد في زاوية من زواياه إلا الحياة.وليس الحياة في بعض جوانبه كما كتب العالم المذكور . ذلك لأن ما يسّمونه جماداً ينبض بالحياة أيضاً . كما أثبت ذلك تركيب الذرة الماديّة . فكل ذرة تعجُّ بالحياة بسبب تركيبها من جهة ، وبسبب ما تحمله الذرة من قوًى أساسية تكمن وراء حركة الذرات وتفاعلاتها وتراكيبها وتحوّلاتها . كقوة الجذب والنّبذ ، وقوة الإظهار والأخفاء ، وقوة الإحياء والأفناء . حتى بات وجود هذه القوى في الذرّة من المسلّمات عند علماءْ الفيزياء والكيمياء . وأنهّا وراء تطور الكون بأجمعه . وأساس تجاربهم الكيميائية أيضاً . أفلا تلاحظون كيف إننا إذا فاعلنا ذرتي هيدروجين مع ذرة أوكسجين تنجذبان وتتحدان لتشكلا ذرة ماء ؟ إنّ هذه القوى البدائية التي تحملها الذرة في أبسط أشكالها هي ظاهرة حياة يقيناً . وان كانت حياة بدائية جّداً .

إننا إذا أردنا توليد إنسان أفلا نجمع بين ذكر وأنثى ، وندفعهما للتزاوج وعن طريق قوة التجاذب الكائنة بين الذكر والأنثى وهو ما نسميه المحبّة ؟ وأن نفس قوة المحبة والتجاذب هذه تتراءى كأساس لتلاقح الأزهار وتزاوج الحيوان .

ندرك من هذا كله أن ظاهرة الحياة التي يعيشها الإنسان والحيوان والنبات ، ليست بغريبة عن عالم الجماد والذرات . إنّ قوة الجذب كائنة هنا وهناك . وان قوة التفاعل موجودة هنا وهناك .

أجل غلك نحن البشر من الوعي ما يمكننا من السيطرة وبإرادتنا على أنفسنا . حتى على سوانا من الكائنات أما الجماد فهو على مستوى بدائي جدّاًمن الوعي . بدليل أن ذرة الحديد تنجذب إلى ذرة المغناطيس . في وقت لا تنجذب فيه نحو ذرة الماء . هذه ظاهرة وعي بدائية جدّاً . وبالرغم من أنهم أي العلماء ، يفسرون انجذاب هذه الذرات على ضوء تركيبها الذرّي من وزن نوعي ونواة وكهارب وما شاكل ذلك . ونقول نحن نعم ان انجذاب الذكر والأنثى إحدهما

إلى الآخر يفسرّ أيضاً على أساس البلوغ والتركيب العضوي ولا ينتفي مع ذلك موضوع الوعي وعنصره على كل حال .

الذرة ظاهرة بساطة بينما الإنسان هو ظاهرة تعقيد . وعلى نفس المستوى تختلف مظاهر الحياة بينهما أيضاً . إن ظاهرة الخلية الحياتية لا توجد في الذرة بلا ريب والسبب يرجع إلى أن هذه الأخيرة تعبير عن مرحلة متطورة ومعقدّة جداً من مراحل تطور الذرة نفسها . وما الخلية الحيّة إلا ظاهرة راقية عن الذرة ليس إلاّ . وإلاّ فإن الذرة نفسها تعجّ بالحياة أيضاً .

الذرة تملك ست قوى ، وهي في أبسط شكل لها . أما الإنسان فقد أضحى يملك عدداً كبيراً من القوى كقوة الشجاعة والجبن ، وقوة الكرم والبخل ، وقوة الحب والبغض ، وقوة التسامح والحقد . وما أشبه ذلك من قوى زوجية ومتضادة . هناك في الذرة قوى . وهنا لدى الإنسان قوى أيضاً . وما الفرق إلا فرق القلّة والكثرة ، وليس فرق النوع والجنس . حيث إن ظاهرة قوى الإنسان ظاهرة تركيب وتعقيد ، أساسها تمازج قوى الذرة الحاصل في مختلف مراحل تطورها ورقيّها . هذا التمازج الذي تولدت عنه قوى جديدة مكتسبة وبثوبٍ جديد ، لكن خيوطه قديمة . كالألوان الأساسية ، يتركب منها عشرات ومئات الألوان ، أو كالحروف الأبجدية يتركب منها كلمات لا حصر لها .

وما دام الإنسان مادة والذّرة مادة ، كما ثبت علمياً . وما دام مرجعهما يعود إلى جنس واحد وطبيعة واحدة ، كما يبين العلماء . فالمفترض عقلاً أن تكون قواهما واحدة الأصل . مع الأخذ بعين الإعتبار ظاهرة التركيب والتعقيد على مستوى الإنسان .

وهنا بيت القصيد . ولطالما استغربت مرور العلماء عند هذه النقطة بالذات مرور الكرام ، ومن دون أن تأخذ منهم حقّها من التفكير والتمّحيص . فكم من عالم أفنى حياته في مجالات البحث والاستقراء . وكم من عالم ضحّى بحياته في

المختبرات والتجارب الكيميائية والطبيّة . ويشهد على تضحياتهم تلك ضجيج المصانع والمكتشفات على مختلف المستويات ، والمحاولات الجارية لاكتشاف الفضاء .

وإن انكباب هؤلاء العلماء على بحوثهم المادية المقلقة بالوزن النوعي للذرة . أخذ بمجامع القلوب ولا ريب . حتى باتت البشرية تعتقد أننا ما عُدنا بحاجة إلى بذل أي جزء من أوقاتنا في حقل غير هذا الحقل والمجال .

والذي أُلفت النظر إليه هاهنا . هو أنه ما دامت قوى الذرة هي أساس تطور هذا الكون ، لزم أن تنظر إلى قوى الإنسان نفس هذه النظرة معتبرين هذه القوى نابعة من قوى الذرّة نفسها ، لا أنها جاءت منفصلة عنها . وان نعتبرها الأساس لترقية الإنسان نفسه ،ظاهراً وباطناً،وعلى جميع الصعد .

وإن نحن فكرنا في قوى الإنسان ، نجد أنها هذه الصّفات الطبيعية التي يحملها الإنسان منذ ولادته ونشأته . والتي تبدو على صورة ظواهر الشجاعة أو الجبن . وظواهر الكرم أو البخل . وظواهر المحبة أو البُغض . وما إليها من ظواهر تتبدى في تصرفات الإنسان وأعماله . وتشكل المحرك الأساسي لهذه التصرفّات .

ولقد سمّت اللغة العربية هذه الصفات الطبيعية أخلاقاً مُفردها خلق ، بضم اللام . والخلُق هو اسم لجبِلّة الإنسان الباطنة . ولا يصّح تعريف الأخلاق إلا بعد دراسة وتحليل هذه الجبلة الباطنة ، دراسة علمية واستقرائية . وإنّ الذين لم ينطلقوا هذه الانطلاقة . فينطلقون من معطيات سياسية أو اجتماعية أو غيرها ، لا يكونون قد انطلقوا في نظري انطلاقة سليمة من جهة ، ولا يكون لتعريفهم نفس المكانة العلمية من جهة أخرى .

وإن كتابي هذا « جـذور الأخـلاق » ما هو إلا محاولة متواضعة على طريق الربط ما بين قوى الذرة الأساسية ، وما بين صفات الإنسان الطبيعية ، ربطاً موضوعياً وعلمياً إلى جانب وضع تعريف للأخلاق ، قائم على أساس علمي ،

من هذا المُنطلق المشار إليه ، مع محاولة شرح الطريق الأمثل لاستعمالها استعمالاً فاضلاً عند الإنسان ، وأكون بهذه المحاولة المتواضعة قد خطوت خطوة أساسية لسدّ « الفراغ » الذي تأتّى عن إندفاع العلماء في حقول الوزن النوعي للمادة ، وإهمال قواها الأساس .

وإني حينما استعمل كلمة«فراغ لا أكون متطرفاً أو مُتعنتاً»ذلك لأنكم سمعتم ما كتبه العالم « هيوبرت ريفز » وسواه . فيما تعلق بالأصل المادي للإنسان . إن ما كتبه هذا العالم وأمثاله يعطينا فكرة واضحة عن تلك المحاولات الجادّة والمُضْنية التي بذلها العلماء في مضمار البحث عن جذور الجسم البشري . لكنكّم لا تجدون مثل هذه المحاولات ومثل تلك الجهود مبْذولة في مضمار البحث عن جذور الصفات الطبيعية للإنسان . فهذا هو الفراغ الذي أعنيه فما تساءل عالم ذرّة ، على حدّ علمي ، عن جذور هذه القوى الباطنة التي جاء الإنسان يحملها ، والتي تتجلىّ في حُليّ شجاعته أو كرمه أو حبّه وما شاكل من صفات .

واعلموا أن « نظرية جذور الأخلاق » هذه الموضّحة معالمها في هذا الكتاب . والتي لا تخرج الآن عن كونها محاولة متواضعة أولية . ستؤدي إلى تصنيف الأخلاق في سُلّم المادة بعد حذفها من سلّم الفلسفة«هذا إذا صحّت أسس هذه النظرية التي قدّمتها ، ومنطلقاتها . إذ سيعود الإنسان مادة جسماً وروحاً ، ظاهراً وباطناً . ولا يعود يجرؤ مثقّف على الزعم بغير هذا . ولا يعود هناك من يملك حقّ الاستخفاف بالأخلاق ، على اعتبارها شيئاً فلسفياً ، ولا طائل تحته . وإن هذه النظرية تعطي موضوع الأخلاق حياة جديدة ، كاد يفقدها في خضّم عصرنا المادي . وستفتح بهذه النظرية آفاقاً أوسع للبحث والدراسة والتحليل ، وعلى صعيد تقدّم الإنسان وتطوّره .

وقد ثبت علمياً أن قوى الذرة جميعها خير وبركة في حدّ ذاتها . ولا يكون العيب إلاّ في سوء استعمالها . وهذا الأمر نفسه يصّح قوله فيما يتعلق بجبّلَةِ الإنسان الباطنة أي ما يتعلق بصفاته الطبيعية والتي أسميناها في اللغة العربية

أخلاقاً . فأخلاق الإنسان وقواه خيرٌ كلها . ولا يبدو العيب إلاّ حيث يسيء المرء استعمالها . فكما أُسيء استعمال ما في الذرة من طاقات تدميرية . كذلك يُساء استعمال طاقات الإنسان وما يحمله من قوى . إن الذرة كما نعلم تولّد عنها القنبلة الذرية ، كما تولد عنها المولدات الذرية التي تُولّد الطاقة الكهربائية . وإن القنبلة الذرية ، في حين أنها لا تفيد إلا كأداة تدمير . فإن المولّدات الذرية فتحت أمام الإنسان أبواب الاستفادة من طاقة جديدة لتوليد الكهرباء وتحريك الآلات ، وكما أن هناك نواميس طبيعية تُعين على الحدّ من استعمال القوى التدميرية في الذرة كذلك يجب على البشرية معرفة القوانين التي تصون طاقات الإنسان وقواه عند الاستعمال . القوانين التي ان نحن ثقفنا الإنسان بها ، انقلب من فوضوي إلى إنسان متّزن معطاء .

وإنيّ سلّطتُ الأضواء على هذه الأمور وغيرها في هذا الكتاب بلغة سهلة بعيدة عن تعقيدات المصطلحات ممّا يقربها إلى فهم الشاب الفطن ، بله العالم المُتبحر ، وفي آن واحد فلا تروني التزمت باصطلاحات علم الأخلاق ، ولا نقلت تعريفات أهله . بل تجنبت هذا وذاك ، كيلا أثقل ذهن القاريء الكريم . الأمر الذي يصون فؤاده من الملال .

ولا أُغالي إذا قلت إنّ « نظريـة جـذور الأخـلاق » التي يعبرّ عنها هذا الكتاب ، تشكّل في نظري وتقديري قفزة نوعية في مضمار علم الأخلاق . وخطوة تصحيحية تضع علم الأخلاق على أرضية صلبة لا تتزلزل فتساعد الباحثين على التقدم بثبات على طريق فهم الأخلاق ، والأخلاق الفاضلة ، والفطرة البشرية وما يمتّ إلى ذلك من أمور .

وادعو الله تعالى باريء هذ الكون ، ومطوّره ، ومربيّه قوىً ووزناً نوعياً ، ادعوه أن يبارك محاولتي المتواضعة هذه وأن يجعلها فاتحة عهد جديد للإدراك والتطور والرقي . والله من وراء القصــد .

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية الموضوع

يكاد لا يوجد في كوكبنا الأرضي طفل إلّا وقد سمع منذ نعومة أظفاره ، من والديه ، أو ممّن يتولّونه بالعناية والتربية ، كلمات الترغيب بفعل ما ، على أنه فعل أخلاقي . أو الترهيب من فعل ما ، على أنه فعل لا أخلاقي .

ففي طفولتنا ، كان كل إنسان منا يسمع صوت والديه ينذرونه : لا تكن يا بُني مبذّراً . إنهم كانوا ينصحوننا ويحذروننا من التبذير ، في وقت كانوا ما وضعوا فيه بين أيدينا أكثر من دريهمات . وكُنا نسمعهم في الوقت نفسه قد تبرعّوا لمشروع إنساني عدة ألوف من الليرات . كانوا يضنون علينا ، ويتكرمون على سوانا دونما غرض ظاهر . وكان يتملكنا العجب من هذا التناقض .

فإذا حاول أحدنا كسر الطوق والاستفسار عن سّر هذا التضادّ الظاهري ، ترنّ في أذنيه كلمات وعظ مفادها أن التبذير هو خُلق سيّء من عمل الشيطان ، أما التبرع بالمال وسواه في سبيل أعمال الخير فهو خلُق فاضل يزيّن صاحبه بفضائل الصّفات .

ثم ، ومَنْ مِنّا لم يسمع بعمليات انتحار فردية ؟ ويدور الحديث حول فعل الانتحار ، ويصفونه بأبشع الأوصاف ، حتى يدخلونه في باب « الكفر . هذا ، وإذا ما دارت معركة بين قبيلتين ، أو بين شعبين . ومات عشرات الشباب من كل طرف ، ممن عرّضوا صدورهم لرصاص أعدائهم وحرابه . جلس الناس يتذاكرون فيما جرى ، نسمعهم جميعاً يقولون عن قتلاهم . رحمهم الله لقد دخلوا

في زمرة الشهداء . يقول هذه العبارات كل طرف من اطراف النزاع في مجالسهم بلا استثناء .

فإنفاق دريهمات سُمّي تبذيراً . وإنفاق ألوف الليرات دونما عوض سمي تبرعاً وتضحية . هنا انتحار فردي من نفس واحدة عُدّ كفراً . وهناك انتحار ألوف من الشباب ، عدّ انتحارهم الجماعي تضحية واستشهاداً .

على هذا النحو نرى الناس يقيسون جميع الأفعال بمقاييس تبدو متناقضة أوّل وهلة . يصمون بالعار أفعالاً ، ويستحسنون أفعالاً . فإذا عُدْتَ إلى موازينهم جميعها ، تجد أنها موازين نابعة مما يسمّى أخلاق .

ومما يزيد المرء تعقيداً هو تفاؤل الناس جميعهم ، وعلى اختلاف مشاربهم ، باصطلاحاتهم وما تعارفوه .

فما هي هذه الأخلاق !

ما معنى هذا اللفظ ؟ ما هو مفهوم الخلق وتعريفه ؟ بل وما هو منبعه ؟ هل للخلق والأخلاق جذور مادية حقيقية في النفس البشرية ؟ فإن كان هنالك مثل هذه الجذور فإلى أين تبلغ في عمقها المادي ؟ وهل يمكن كشف ذلك بالطريقة العلمية المطبقة في حقل المادة والمواد ؟

أم أن الأخلاق بناء قام على وهم المتدينين ورماهم ؟

أضف إلى ذلك ، كيف اتفقت جميع أمم الأرض على إصطلاح الأخلاق ؟ هذا في حين رأيناهم قد اختلفوا في منشئه وتعريفه ؟ أوَلَمْ نر أن كل فريق من المتقاتلين قد سمى قتلاه شهداء ؟

ثم كيف يمكننا التفريق ما بين خُلق فاضل ، وخلق غير فاضل وبأيّ موازين تطمئن الأفئدة وبأي منطلق علمي سليم ؟

وبالأختصار هل للأخلاق جذور ماديّة يثبت وجودها عن طريق تطبيق الطريقة العلمية في هذا الحقل ، أم أن الأخلاق بدعة موروثة لا تقوم على أساس ؟ أم أنها لهو فلسفي ؟

لست أول من طرح هذه الأسئلة ، ولا أول من خطرت له هذه التساؤلات في تاريخ البشرية المتناهي في القدم . لا ، بل طُرحت هذه التساؤلات في شتى العصور . بل كانت دوماً مشغلة أعظم مفكري العالم في جميع التواريخ .

فمن تتبعّ أبحاث الفلاسفة ، وما تفلسفوه ، يقع نظره على عشرات الأجوبة المتناقضة المتضاربة : أشتهر بعضها وشاع تبنّيه ، على حين أهمل بعضها الآخر ودخل سجل الإهمال .

فالإنسان الذي يريد كلمة الفصل العلمية في موضوع علم الأخلاق ، لا يسعه أن يجد ، في كل ما كُتب حتى الآن ، شفاء لما في صدره من تساؤلات ، ولا بلسماً . وأقل ما يقوله المرء : كيف يتفق العالم على نقطة هي ضرورة التحلي بالأخلاق الفاضلة ، ولا يتّفق في الوقت نفسه على تعريف محدّد للأخلاق ؟ إن أقل ما يمكن الاستدلال به هو أن للأخلاق جذوراً كانت مدعاة إتفاق الجميع . لكن جهل الناس بهذه الجذور الخلقية البالغة أصل المادة ، وعدم بلوغهم معرفتها ، ومعرفة أبعادها بالطريقة العلمية ، جعلهم لا يتفقون على تعريف واحد ، لأن القاعدة المفروض معرفتها لإقامة هذا البناء ، غير واضحة المعالم في أعين الجميع .

وأقول هذا بصراحة : إذا لم تقم الأخلاق ، أو قل إذا لم تستند الأخلاق إلى جذور مادية واضحة المعالم ، وبالطريقة العلمية ، فإن ناشئة القرن العشرين ، وما بلغوه من رقي مادي ملحوظ ، لابد أن يفقدوا ثقتهم بعلم الأخلاق نهائياً ، وعلى المدى الطويل . إذ سيأتي يوم لا يعود الناشئة ينظرون إلى الخلق والأخلاق إلاّ أنها من أختلاق بعض أجدادهم الأذكياء لإخضاع سواهم من بني جنسهم لسلطتهم وسيطرتهم بهذا الأسلوب الذكي .

وإنّه إذا صُفِع أحدنا على خده ، تورّد وجهه من الغضب ، ويتطاير الشرّر من عينيه ، وحاول اتخاذ موقف سريع ثأراً لنفسه . ويتدخل المسيح ليقول له : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . ويتدخل القرآن ليقول : [وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، ومن عفى وأصْلح فأجره على الله] . شورى ٤٠ ـ . وتتدخلّ الأعراف القبلية لتفرض أحكامها أيضاً : إما برد صفعة مثلها ، أو بضربة سوط ، أو بفدية أو اعتذار .

وقد يؤدي صفع إنسان لآخر أحياناً إلى اقتتال عنيف بين عائلتين أو قبيلتين ، أو حتى بين شعبين .

ويتساءل المرء : لم هذا الإختلاف في ردود الفعل على هذه الصفعة ، مع أن الصفعة هي صفعة في كل مكان وزمان على كل حال ؟ إن ظاهرة الغضب ، حين الصفعة ، واحدة عند كل إنسان . فهي ظاهرة طبيعية جدّاً ويستحيل أن يحتمل المرء تَدَخُّلَ جانب آخر ليغرض عليه كظم غيظه ، وعدم انفعاله ، إلا قهراً . وهذا الذي يعني بصراحة إن ردود فعل الإنسان حين غضبه وعلائم غضبه ، تعد قاسماً مشتركاً أعظم يوحّد الناس جميعهم على أختلاف ألوانهم وأزمنتهم وأمكنتهم ومشاربهم . ومعتقداتهم .

فظاهرة الغضب هي ظاهرة طبيعية في نفس الإنسان . ولا يتدخّل الدّين أو التقاليد ، أو سوى ذلك إلاّ في توجيه ظاهرة الغضب وجهة معينة تتفّق ومعطياته ، وتنظم ردود فعل الغاضب وحسب ، وذلك بالقول إن هذا الفعل نتيجة الغضب هو خلق فاضل أو تقول بأنّه خلق سيء لا يمت إلى الفضيلة بصلة من الصلات .

فما هي الجذور المادية للغضب ، إن كانت للغضب جذور مادية حقّاً ؟

ومما يزيد موضوعنا أهمية حول ضرورة التفتيش والاستقراء بطريق علمي صحيح عن جذور الغضب ، فإذا ثبت أن الإنسان مخلوق مادي في نشأته ، فمن أين تأتت إلى جبلته صِفَةُ الغضب ؟ هل هذه صفة عابرة فيه أم أصيلة ؟ أهي صفة سطحية أم هادفة ؟ ثم ما هي صلة ظاهرة الغضب بعلم الأخلاق ؟

ينسب المتديّنون هذه الظاهرة للفطرة البشرية . ومن يتتبّع أقوالهم يلاحظ أنهم لم يتفقوا أيضاً على مفهوم محدّد للفطرة البشرية . ولم أطالع لأحد منهم كتاباً في موضوع الفطرة ومَنْشئها المادي ، وحدود عملها في النفس البشرية . فكأنهم يقيمون عقائدهم وأفكارهم على تخيلاّت عنديّة وظنون وأوهام لا يملكون عليها دليلاً .

وكنت أتوق إلى قراءة بحثٍ واضح عن الفطرة البشرية وتعريفها ومفهومها العلمي النابع من نظرية إسلامية واضحة المعالم ومُقنعة كنت أصبو إلى هذا منذ فجر شبابي . حتى إني طرحت هذا السؤال نفسه على أستاذ علم الكلام الذي كان يتولىّ التدريس في الجامعة التي درست فيها علوم الأديان ، فلم أحصل على ما أريد آنذك فزادني ذلك شوقاً واندفاعاً في هذا المجال .

وشعرت بالمسؤولية تجاه هذا البحث . الأخلاق وجذورها ، الفطرة البشرية : حقيقتها وتعريفها ومفهومها . حتى مرّت تحت ناظري سطور في كتاب كنت أقرؤه ، فلمع في ذهني شعاع وبصيص نور أضاء لي أول الطريق المؤدي إلى الأخلاق وجذورها . فوضعت أقدامي على الطريق بلهفة أشد وإندفاع حذر . وتوسّعت وتوسعت بجهدي الفردي . وبالطريقة العلمية القائمة على أساس الملاحظة والتجربة والاستنتاج حتى وفقني ربّي إلى إدراك معالم نظرية الأخلاق وجذورها المادية . وكان رمضان هذا العام ، عام ألف وتسعمائة وثمانون ميلادية ، فرأيتني أجلس متعبّداً ، ومنكبّاً على كتابة هذه النظريّة ، لأضيف كتاباً إلى المكتبة العربية في القطر العربي السوري ، إعتقاداً مني بأني أقدّم خدمة جُلّى في حقل علم الأخلاق ، ما سبقني غيري إليها . وإنه إذا صحّ ظني فلا بدّ أن يحدث هذا الكتاب إنقلاباً جذرياً في رؤوس الناشئة ، لصالح الإنسانية جمعاء .

فمن يقرأ كتابي هذا ، يسعدني بأنه سيقول : إنني وضعت قدماي أخيراً على قاعدة فكرية صلبة الجذور واضحة المعالم ، وأساس لكثير من الأمور الفكرية التي كان يتكلم فيها المتكلمون ،كانوا يدورون حول أنفسهم ، ولا يتقدمون .

وإني ، بنظرية جذور الأخلاق القائمة على طريقة علمية سليمة ، أفتتح للباحثين مجالات ما كانت لتفتح دون مساعدة هذه النظرية . أفتتح مجالات بحث ، في مضمار المعرفة ، وفي حدود علـم الأخلاق بالذات ، وما يردفه من علوم ، مجالات معرفة لابد أن تساعد على التقدم الاجتماعي ، وحلّ عقد المشاكل الاجتماعية ، حتى والسياسية الكبرى منها في عالمنا ، وحتى في العالم أجمع .

وأضيف هنا القول ، بأن نظرية جذور الأخلاق هذه إذا تبنّاها المؤمنون بالله خالق المادة ، فلا يجدون أنفسهم إلاّ وتتفتح لأذهانهم معاني الآيات القرآنية التي بحثت أمور الأخلاق عند الإنسان ، وفطرته ، ومعالم هذه الفطرة البشرية ستتفّتح معاني هذه الآيات القرآنية الكريمة المعطاءة لناظريهم على صورتها العلمية ، مما سيزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، وتصحيحاً لمنطلقاتهم . الأمر الذي ينتهي بهم إلى أن يربطهم بركب العلم والعلماء إنشاء الله .

وإن أهم ما حدث في عالم اليوم هو أن الطريقة العلمية وضعت موضع التطبيق والفائدة في حقل المادة ، ومجال المادة فقط . ولقد تكدّست عطاءتها ، وتعاظمت لخير الإنسان ورفاهه المادي . حدث هذا بصورة كادت تطغى المادة فيها على فكر الإنسان وبات العفوّيون ـ إن صحّت تسميتهم كذلك ـ يظنون بأنه لا شيء في هذا الكون إلاّ المادة ذات الوزن الكمّي . وشرعوا ينزاحُون بهذا الفهم السّطحي تلقائياً ، عمّا يمت للأخلاق والإلهيات بصلة من الصلات .

وإني ، وإن كنت في نظرية جذور الأخلاق هذه لا أخرج عن نطاق المادة . لكني أضع حجر أساس متين في كشف إحدى زوايا المادة أهمّ . وما في جانبها من خير أعمّ ، ولمصلحة جميع بني الإنسان .

ويقيني ، أن الفتوحات ستتوالى بعد هذه النظرية ، وستتكدّس عطاءاتها لارواء الظمأ الروحي عند الإنسان . وسيتكامل العطاءان : المادي منه والروّحي ، كثمارٍ للطريقة العلمية في البحث والاستقراء .

وما نظرية جذور الأخلاق ، إلا خطوة أولى ، وحسب ، في مضمار علم الأخلاق القائم على أسس الطريقة العلمية . وإن طريق ومجال علم الأخلاق طويل ، وطويل جدّاً ، وهو يتجاوز مجالات المادة نفسها على مستوى الوزن الذري لها . إن لم يكن موازياً لها ومساوياً .

دونكم علم الطب . فقد دلّت الأبحاث على أن النسبة العظمى للأمراض الجسمانية ، أصلها نفسي . بمعنى أن منشأها كامن في هذه الصفات الطبيعية التي يتصف بها الإنسان من رضى وغضب ، وحبّ وكره ، ونفرة وشهوة ، وحسد ومقت وسواها من الصّفات فما أنصع هذا البرهان وأوثق هذه الحجّة . وكم تكمن وراءه حقائق في مجالات علم الأخلاق . فهذا مجال واسع للبحث والاستقراء العلميين . وقيسوا على ذلك بقية الأمور .

وأخيراً ، ادعوه سبحانه فاطر السماوات والأرض ، وفاطر الإنسان على أساس من الصفات التي لا تبديل فيها . أدعوه للأخذ بيدي ، وليطلق قلمي بما هو حق يرضيه . أدعوه ليؤتيني قوّة البيان ، مِنّة منه وفضلاً ، فهو الرحمن ذو الجلال والإكرام .

***

ظاهرة التكوين والتنويع والتلوين

نحن نعيش في عالم مادّي ، لاشك في وجوده ، مؤلف من أجسام وطاقات وقوى . وأشياء هذا العالم توجد مفردة ، أو مركبة من أنواع متعدّدة من المادة . قد تكون متجانسة في خواصها ، أو لا تكون متجانسة في هذه الخواص .

وإن ما كان من الأشياء متجانساً في خواصه . قد يكون بعضه له تركيب ثابت ، كالأوكسجين النقي مثلاً،أو لا يكون له تركيب ثابت كالخلائط المعدنية عموماً .

والأشياء المتجانسة،قد تمكَّنَ العلماء التجربيّون من تفكيكها حتى وصلوا إلى جزئيات تحوي ذرات متساوية في عددها الذري أي متساوية في البروتونات . وحتى الذرّة وضعوا نظرية بُنيتها ، بالطريقة العلمية . ولم يزعموا مطلقاً ، أن الذّرة ، المتناهية في دقة وصغر حجمها بحيث لا يتصور العقل حجمها ، لم يزعم العلماء بأن هذه الذرة العجيبة هي آخر مراحل المادّة نزولاً وعمقاً . بل أنهم قالوا بأن هذا الباب ما زال مفتوحاً على مصراعيه في حقل الاكتشافات .

وما أثبته العلم ـ كما ذكرت ـ ليمثلّ في حقيقته ظاهرة التركيب المُعقّدة ، وما فيها من تنويع وتلوين لأبسط جُزئيات المادة وما ظهر منها من أشكال وأشياء في عالمنا ، وضمن قوانين خاصة وعامة ، وتفاعلات وتحوّلات .

إن ظاهرة التركيب والتنوع والتلوين المذكورة ، لا نلاحظها تنحدر نزولاً نحو الجذور وحسب ، بل وتتراءى لنا صعوداً على مختلف الأشكال والأنواع والمستويات .

فعلى مستوى الإنسان الواحد في نشأته المادية ، نلاحظ الأفريقي الأسود ، والأوروبي الأبيض والياباني الأصفر وسواهم . وإن السادج ليظنّ لأول وهلة بأن هؤلاء الملونين يتمايزون في إنسانيتهم مع أن العلم أثبت وحدة هؤلاء جميعاً في الإنسانية وأن ظاهرة التمييز العنصري تُعتبر في حقيقتها مظهراً من مظاهر هؤلاء السذّج السّطحيين في فهمهم وإدراكهم . فالإنسان الأفريقي هو إنسان كمثل الإنسان الأوروبي وسواه من أهل القارات كلها في إنسانيته ، وكل ما هنالك أنه اكتسب لوناً بسبب صبغيّاته الناتجة عن ظروف بيئته التي وُجد فيها . وان هذا ولا شك يعتبر ظاهرة من ظواهر التركيب والتنويع والتلوين التي أتحدث عنها .

والإنسان يكتسب صفات عديدة عن طريق الوراثة ، حتى أضحت قوانين الوراثة شبه معروفة . وعليه يوحي علماؤها بالتزاوج من خارج الأقرباء حفظاً للنسل وتطويراً له ولملكاته العقلية . وهذا التنويع الذي يوصي به هؤلاء العلماء ينفتح على هذه الظاهرة الكونية المذكورة . وهو الأمر الذي يساعدنا على معرفة الكيفية التي تطوّر فيها العقل البشري وترقى عبر تاريخ البشرية السحيق .

وإننا إذا عُدنا بتصورنا إلى الإنسان الأول ، وما نسميه إنسان ما قبل التاريخ ، أو إلى إنسان الكهف بالذات ، فهل نُنْكِرُ كوننا من أحفاد أولئك الناس ؟ فما أوسع البون ما بين إنسان عصرنا ، وما بين إنسان ذاك العصر . فكيف تأتى هذا الفرق كله ؟ إنها عوامل ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين التي أتكلم عنها وراء هذا التطور الواضح المعالم . هذه الظاهرة التي تضمّ قوانين ، وقوانين كقانون الوراثة والعلم والبيئة وسواها من القوانين التي نعرفها والتي لم نعرفها حتى الآن . فكل ملكات إنسان ما قبل التاريخ وقواه ، من أحاسيس وإدراك وذكاء وسواهما قد تطورت وارتقت وتنوّعت .

ولو جئنا الآن بإنسان ما قبل التاريخ إلى وسط بيئتنا ، بيئة القرن العشرين ، فهل سيُصدّق ذاك الإنسان بأننا من نسله ، رغم التشابه الواقع في معالم أجسامنا معه ؟ لا أعتقد بأنه سيصدق هذا . ذلك لأننا نحن بالذات وعندما نتصور شكله

وحياته ، وفق معطيات آثاره ، لا نكاد نصدق أننا من نسله ومن أحفاده . فما الذي أوجد هذه الهُوّة بيننا وبين أجدادنا أولئك ؟ إنها ظاهرة التطور عن طريق التركيب والتنويع والتلوين التي تنقل كل شيء من حالته البسيطة ، إلى حالة متطورة معقدة التركيب .

وهذه الظاهرة لا تقتصر على الإنسان وحده ، بل هي تعمل على مختلف مستويات الأحياء وحتى الجمادات والنباتات . ومن أين تأتت هذه الأنواع التي لا تُحصى من الحيوانات والدّواب والجراثيم ؟ وهذه الأنواع التي لا تحصى من النباتات ؟ وهذه الأنواع التي لا تحصى من المواد الطبيعية وغير الطبيعية ؟ إن وراء هذه الظاهرة ، ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين .

فها أننا ، أوجدنا على مستوى المواد ، وضمن قوانين التركيب والتنويع والتلوين هذه عشرات من أنواع البلاستيك والمطاط ومبيدات الحشرات ، والمضادات الحيوية وغيرها وغيرها ، وهل كان يتصور إنسان أن يُصنع المطاط من النفط ؟ إن هذه التركيبات الجديدة ، القائمة على منطلقات هذه الظاهرة وقوانينها ، أذهلت العقول وأدهشتها ، فلا عجب إذن إذا ربطنا بعد ما بين قوى المادة البسيطة ، وما بين ما تفتق منها من صفات على مختلف الصعد ، حتى بلغت في تطورها شكل الصفات الطبيعية التي تحملها جبلة الإنسان .

وعالم الذرة وما أدراك ما عالم الذرة ! هذا العالم العجيب الغريب ، وهل ينكر أحدنا ما تفتّح عن هذا العالم وما أوجد وأختُرع ؟ بل قل إن الذرة ومُنتجاتها أضحت شغل الناس الشاغل . بل أضحت أيضاً مصدر رعب شديد ، كما أضحت أملاً مشرقاً لعالم أفضل أيضاً وكريم .

وهذا العالم الذي نشكل أحد أشيائه . أفلا تجمع جميع أشياء هذا العالم خامة واحدة من حيث النشأة والتركيب ؟ وأوليست جميع صنوف الحياة تقوم على الخليّة الواحدة ومضاعفاتها ؟ أفلا نعود ـ كما قالوا ـ إلى فتلة حريرية واحدة غزل منها هذا

الكون على أشكال وأنواع وصنوف ؟ حتى غدا لا خلاف بينها جميعها إلّا في العلاقات الكيفية والكميّة ؟

نخلص من هذا كله إلى القول بأن ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين وما يوجد وراءها من قوانين وتفاعلات ، هي وراء تحوّلات هذا العالم وتكوّنه ، هذا العالم الذي ابتدأ من دخان ذرة الهيدروجين ، وتطور إلى أن وصل إلى عالمه العجيب المعاصر ، فمن أبسط أشكال المادة جاءت مختلف الأشياء من جمادات ونبات وحيوانات وإنسان . هذا الإنسان العجيب الذي جاء من هذا الأصل المادي ، وبشكل مذهل للعقول . وهل كان بالإمكان أن يصدق عقل ، وهو يرى أبسط جزئيات المادة ، بأن هذه ستتطور ، وتزداد تطوراً وتتعقدّ تركيباتها وتزداد تعقيداً . وتتلون ، وتتنوع ألوانها ، حتى يأتي طور تتخذ فيه هذا الشكل الآدمي البديع . شكل الإنسان مالك العقل والإرادة والحواس وما إليها من ملكات تؤهلّه للسيطرة على المادة نفسها هذه المادة التي كانت طينة تركيبه الأولي ، وتسخير كل ما ينتج عنها وعن تطورها من عوالم الجماد والنبات والحيوان ، تسخرها كلها لمصلحته وفائدته ؟

أو لم يثبت العلم التجريبي كل هذا بطريقته القائمة على الملاحظة والتجربة والاستقراء ؟ فهل يُعقل بعد هذا كله إنكار وجود ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين التي ألفت الأنظار إليها في هذا المجال وضمن هذه السطور ؟

ألا . إنه بالأمكان تبسيط الأمر أكثر من هذا . وذلك بضرب مثل واقعي حيّ من وسطنا يفسّر هذه الظاهرة تفسيراً يقربّها إلى الأذهان . وهو علم الألوان المعروف .

فالألوان هي زينة عالمنا . وعالم بلا ألوان هو عالم مملّ وحزين . وأهتمام الإنسان باللون واستعمالاته هو أهتمام فطري عنده . إذ يكاد كل إنسان يميل إلى الرسم والتلوين ، والتمتع بألوان الأزهار والورود والشفق ، وزرقة السماء ، وحُمرة النجوم .

وإذا جلس أحدنا يُحصي عدد الألوان في الطبيعة ، فإنّه يكاد لا يحصيها . بما لها من درجات ودرجات . فهناك درجات من اللون الرمادي تبدأ من اللون الأبيض وتنتهي عند اللون الأسود . وهناك درجات من اللون الأصفر . ودرجات من اللون الأخضر . ودرجات من اللون الأزرق . ودرجات ودرجات . .

نلاحظ درجات هذه الألوان كلها ، في وقت أثبتت فيه تجربة نيوتن أن أصل الألوان جميعها يعود إلى سبعة ألوان ، هي ألوان قوس قزح : الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق بنفسجي والبنفسجي والأسود . وإن بين كل لونين من هذه الألوان السبعة درجات من الألوان تعد بالعشرات ، تنبع من هذه الألوان الأصلية بطريقة المزج والتركيب ، وذلك بمقادير ونسب معيّنة .

من هنا كان من الألوان ألوان أصلية ذات خواص محددة ، وألوان مركبة ذات خواص جديدة محدّدة أيضاً ، لكنها في حقيقتها ، ذات نشأة واحدة . يجمعها قاسم مشترك أعظم .

حتى إن من العلماء من أرجع الألوان إلى لونين فقط ، أو إلى ثلاثة ألوان أصلية . وهذا لا يهمنا ، بقدر ما يهمنا الاستفادة من هذا المثال لفهم ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين التي ذكرناها .

فانظروا كيف أن الرسّام يركبّ من الألوان الأصلية . درجات ودرجات من الألون لتزيين لوحته وإعطائها صفة هي أقرب إلى الطبيعيّة منها إلى غير الطبيعية . وعلى هذا النسّق ، بإمكاننا قياس ما تولّد في هذا الكون من تركيبات ، وتنويعات في هذه التركيبات ، وتلوينات لهذه المُركبات .

وإن هذا المثال يفترض أن نعود في كل شيء إلى أصله عندما نُيمّم دراسته ، والوصول إلى سبر أعماقه وخواصه . ومن هنا كان علينا أن نعود عند بحث الأخلاق وصفاتها إلى البحث عن جذورها التي تطورت منها . العودة إلى الصفات أو القوى الأصلية التي أتصفت بها المادة وانطوت عليها في أبسط أشكالها . لنرى كيف تطورت هذه القوى وتنوعت وتلّونت حتى ظهرت في نفس الإنسان على

صورتها الحالية . ذلك أن الإنسان منشؤه المادة كما أثبت العلم . وذكرت آيات القرآن الكريم [وجعلنا من الماء كل شيء حيّ] .

فالماء مركب من أوكسجين وهيدروجين بنسب معينة . وهذا وصف لمرحلة نشوء الحياة من المادة بعد بلوغها مرحلة ظهور الماء ، أصل الحياة في النبات والحيوان والإنسان . ثم أوليس يُعتبر الإنسان أعجوبة ظاهرة التّركيب والتنويع والتلوين من حيث شكله وقواه وصفاته . إن هذا يحتّم علينا يقيناً ، عند دراسة صفاته . أو موضوع الأخلاق ، هذا الموضوع الدائر حول أعمال الإنسان النابعة من صفاته الطبيعية ، العودة إلى دراسة المادة نفسها ، وخواصها وقواها ، في أبسط أشكالها المعروفة . وهناك سنجد جذور ما في الإنسان من صفات طبيعية يقيناً ، جذور صفات غضبه وفرحه ، وجذور شجاعته وجبنه ، وجذور كرمه وبخله ، وجذور أنانيته وحقده وحسده وما إليها من صفات يتصف بها المرء بشكل فطري ، تؤثر في أعماله وتصرفاته وعلاقاته ببني جنسه من بني الإنسان .

***

المـادّة وخصـائصهـا

إنّ الأشياء المادّية في الطبيعة ، على اختلاف أشكالها ، إنساناً كان ، أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً ، يحتل كل شيء منها مكاناً له في هذه الطبيعة . يحتل مكاناً يتميّز بستّة جهات معلومة هي : أمام وخلف ، يمين وشمال ، فوق وتحت . فيقول كل منّا : هذا أمامي ، وذاك خلفي ، هذا عن يميني ، وذاك عن شمالي . والسّماء فوقي والأرض تحت قدميّ من هذا نستنتج بأن للمادة جهات ستّاً نسبية .

ونلاحظ بأن هناك تقابلاً واقعاً بين كل جهتين من جهات المادة . فأمام يقابله خلف . ويمين يقابله شمال . وأعلى يقابله أسفل . كما نلاحظ بأن هذا التقابل هو سبب توازن الجهات في المادة . ويمكن القول إن كل جهتين من جهات المادة ، هي نفسها موجبة أو سالبة ، مذكرّة أو مؤنثة ، إن جاز التعبير كذلك .

والذرّة ، كما أثبتت أبحاث وتجارب علماء الذرة ، لها بناء خاص . بناء حياتي ، دائم الحركة ، يمتاز بصفات وخصائص وقوى . ولست بصدد الكلام عنها وعن تركيب الذرة . . حيث أضحى يعرفها كل مثقف ، ويلمّ بها بعض الإلمام .

وما يهمنا هنا من هذه الخصائص هو أن هنالك ، وفي مقابل الجهات الستّة ، قوى باطنية ستّاً أيضاً للمادة ، بمعنى أن للمادة في ظاهرها ست جهات ، وإن لها في باطنها ست قوى في مقابلها ينظّم عملها قوانين وقوانين . .

وتنحصر هذه القوى الباطنية للمادة في قوتي الجذب والدفع ، وقوتي الإفناء والإبقاء ، وقوتي الإظهار والإخفاء . وكل قوتين من هذه القوى منها الموجب ومنها

السالب أو لنقل ان واحدة من إثنتين قوة مذكرّة ، والثانية قوة مؤنثة ، إن جاز لنا هذا التعبير .

عرفنا هذه القوى بنتيجة ما يحدث في المادة من تجاذب أو تدافع . وما يحدث فيها من إفناء وإبقاء ، وما يحدث فيها من ظهور واختفاء . كل هذا بنتيجة خضوع المادة لقوانين وتفاعلات هي وراء ظُهور هذه القوى جميعها .

ولقد أدرك العلماء الذين تعمقوا في دراسة خصائص المادة ، وقواها الباطنية هذه . أدركوا أن هذه الخصائص والقوى هي سرّ تكوّن هذا العالم وتطوره . ولولا هذه القوى والخصائص وما وراءها من قوانين وتفاعلات لظل العالم على أبسط أشكاله الأولى قبل تكونه ، أي على حالته الدخّانية . فقوى الجذب والدفع ، وقوى الإفناء والإبقاء ، وقوى الإظهار والإخفاء ، وقوانين عملها أدت إلى اتحاد الذرّات ، ومن ثم تطورها وتنوعها وتلّونها . وهكذا تكون هذه القوى والقوانين هي سرّ تكون هذا العالم الذي نعيش فيه . وقد ثبت أيضاً بأن خواص المادة وصفاتها لا تتغيّر بتغيّر العينّة المادية ، ولا بدرجة تجزئتها .

ومن جهة أُخرى فإن قوى المادة هذه تجعل الذرّة فاعلة ومنفعلة . فبينما تكون ذرّة ما جاذبة ، يمكن أن تكون في حالة أُخرى منجذبة . وحينما تكون ذرة ما دافعة أو نابذة ، يمكن أن تصبح في حالة ثانية معُرضة هاربة . كذلك عندما تكون ذرة ما مُغنية لذرة أخرى ، يمكن أن تكون هي التي تغنى بتأثير سواها بسواها . وحينما تكون ذرة ما مُبقية لسّواها ، تصبح في حالة أخرى باقية بسواها . وحينما تكون ذرة ما سبب ظهور ذرة أخرى ، يمكن ان تكون في حالة أخرى ظاهرة هي بسواها . وحينما تكون ذرة ما سبب إخفاء ذرة أخرى ، يمكن أن تختفي هي في حالة أخرى ، بسواها . ويبقى حدوث كل هذا ، وظهور هذه القوى السّتّة تابع لقوانين تنظم أعمالها وفعالياتها . ولست بصدد الكلام عن هذه القوانين وعملها في بحثنا هذا ، حيث يمكن الرجوع إليها في كتب الكيمياء وسواها . وما أنا إلا بصدد البحث عن جذور الصفات الطبيعية للإنسان والتي تدخل في علم الأخلاق . البحث عن هذه الجذور عن طريق الملاحظة والاستقراء والاستنتاج .

قوتا الجذّب والدفع

تعود ملاحظة وجود قوتي الجذب والدفع في المادة إلى قرون عديدة . حيث فسرّ القدماء بواسطتها حالات اختلاط المواد واتحاداتها وتحولاتها . فقد لاحظ القدماء جذب بعض الأشياء لبعضها الآخر واختلاطها كامتزاج اللّبن بالماء ، والطين بالتراب . كما لاحظوا نَبْذَ بعض الأشياء لبعضها الآخر ، كعدم تقبّل الماء حالة التمازج مع الزيت أو مع الأخشاب أو المعادن .

ولكن : كيف تتجاذب ذرات العناصر هذه ، وكيف تتدافع وتتنافر . وما هي القوانين التي تنظم عمليتي التجاذب والتدافع هاتين . فهي أسئلة لم يتمكن القدماء من حلّها ، والإجابة عنها إجابات شافية ووافية .

وجاء عصرنا ، حيث توفرّ للعلماء ، بنتيجة اكتشافهم للذرة وبُنيتها ، توفرّ لهم تقديم الإجابات الصّحيحة والمطمئنة على جميع تلك التساؤلات . كما ثبت لعلماء عصرنا بأن هاتين القوتين : قوّتا الجذب والدفع ، ليستا على مستوى واحد في جميع العناصر . بل تختلفان شدة وضعفاً من عنصر إلى آخر . ومن ذرة إلى أخرى ، وإنه بسبب هذا الاختلاف نفسه يحدث ما نلاحظه من روابط قويّة أو ضعيفة تربط ما بين تجمعات ذرات المواد وجزئياتها . هذا الأمر الذي أدّى بالتالي إلى ظهور المواد على أشكالها الثلاثة المعروفة من غازات وسوائل ومواد صلبة .

ولقد قطع علماء عصرنا شوطاً بعيداً في مضمار اكتشاف التركيب الذرّي ، مستفيدين من وجود قوتي الجذب والدفع المذكورتين واللتين هما من خصائص المادة وقواها . مسّخرين هاتين القوتين لتركيب مواد جديدة متنوعة ، ومستندين في

خطوتهم هذه إلى القوانين المكتشفة ، والعاملة على تنظيم عمل هاتين القوّتين : الجـذب والدفـع .

وإن أبسط ما فعله علماء المادة هو توليدهم الماء من غازي الأوكسجين والهيدروجين . أو تفكيكهم لعنصر الماء من حالته الراهنة إلى حالة غازية ، من أوكسجين وهيدروجين . وتمكنوا من إجراء كل هذه العمليات التي يسمّونها عمليات تحليل ، وذلك ضمن قوانين التجاذب والتدافع الحادثة في عالم المادة .

ولقد ثبت لهؤلاء بأنّ قابلية انجذاب الذرات المادية نحو بعضها ، أو تدافعها وتنافرها . إنّما هي قابلية مادّية ، وتحدث ضمن روابط كيميائية محدّدة . وتسبّبت هذه في تشكلّ آلاف المركبات الغازية والسائلة والصلّبة في الطبيعة . وهذه القابلية نفسها ، هي التي فتحت للباحثين الكيميائيين والفيزيائيين وسواهم أوسع الأبواب في هذه المجالات . وهي التي مكّنت الباحثين أيضاً من الإجابة عن كثير من التساؤلات . حيث وضحّوا للناس كيفية ترابط الذرّات بعضها ببعض ، وكيفية تشكيلها لجزئيات المادة . ونسب اتحاد ذرات العناصر بعضها مع بعض . والفروق الكائنة وراء مختلف الروابط المذكورة ، والمؤدية إلى تكوّن المواد الغازية والسائلة والصلبة ، وتأثير الحرارة والكهرباء وسواها ، كعوامل وسيطة ، في حدوث جميع هذه التحوّلات . وهكذا أجاب علماء المادة المعاصرون عن عشرات الأسئلة التي حيّرت القدماء ، وكانت بمثابة ألغاز بالنسبة لهم . فعادت أبحاث المادة وذراتها علماً قائماً بذاته ، ومرتكزاً إلى طريقة علمية ثابتة الأصول في كشف مجاهيل المادة وتطوراتها . ولست هنا بصدد التعرّض لشرح هذه الأمور . بل إن كل ما رجوته هو بيان ما هو مسلّم به من وجود قوتي الجذب والدفع في الأوساط العلمية المعاصرة . هذه القوى التي قامت على أساسها ، وضمن القوانين المنظمّة لها ، جبال شاهقة من المُنجزات العلمية والعملية . متمثّلة في صنع مختلف أنواع المعادن والزجاج والأصبغة والمركبات الكربونية ومبيدات الحشرات ، والبلاستيك بأنواعه ، وسواها من المركبات .

ولا نذهب بعيداً . فالمغناطيس وما يحمله من قوة جذب ظاهرة ، إنما هو مثل حيّ بين أيدي كلّ منا . ويحدثنا عن قوة الجاذبية في المادة . فمن منّا من لم تصل إلى يده قطعة مغناطيس ، ولم يستعملها في جذب برادة الحديد ، أو جمع الدبابيس أو المسامير وغيرها ، وهل بإمكان أحد منّا أن يقلل من أهمية هذه الجاذبية واستخداماتها الواسعة في مجالات القوى المحركة البسيطة منها والجبّارة ، وبمساعدة الكهرباء ؟

وزبدة الكلام هو أن بإمكان الرجل العاديّ إدراك وجود قوتي الجذب والدفع من أمثلة طبيعية جدّاً تحدث تحت سمعه وبصره يومياً . فالتراب في الوقت الذي يتقبّل الاختلاط بالطحين ، فإنه ينبذ الخشب ولا يتقبّله .

والزيت إذا صُبّ فوق الماء أو وسطه ، ينبذ الماء الزيت ولم يمتزج به . وإن قابليات التمازج والاتحاد ، وقابليات التفكّك والانقسام ، هذه كلها تمثل قوى الجذب والدفع ، وما يتبعها من قوانين تنظمها ضمن إطار المادة والمواد . ولهذ يستعمل الواحد منا كلمة (مزجنا) لعملية تجاذب التراب والطحين . على حين يستعمل كلمة (ردمنا) لوضع الطاولة ضمن كوم من التّراب .

ولنلاحظ التقابل الحادث ما بين قوتي الجذب والدفع . فبينما تمثّل قوة الجذب حالة إيجابية ، فإن قوة الدفع تمثل حالة سلبية . فنقول إن قوة الجذب حالة موجبة ، وإن قوة الدفع حالة سالبة . أو بامكاننا القول تجاوزاً بإن الجذب هو حالة مذكرّة على حين أن الدّفع هو حالة مؤنثة .

وإن هذا التقابل بين القوتين هاتين،هو نفس ما لاحظناه من التقابل بين الجهات الستّ للمادة،من وجود يمين وشمال وأمام وخلف وأعلى وأسفل .

ولقد اصطلحت لفظي مذكر ومؤنث للموجب والسالب تجاوزاً ، لأنّهما في حقيقتهما ، حالات بدائية من الجذب والدفع والتي تبرز في النبات في عضوي التذكير والتأنيث ، وفي الحيوان والإنسان في الذكر والأنثى،فهما وما يتبع ذلك من قوانين ضابطة لهذين العضوين أو الكائنين .

والآن وبعد أن سلّمنا بقوتي الجذب والدفع نظرياً وعلمياً ووجودهما في المادة وفي حالاتها الثلاث : الغازية والسائلة والصلبة . تعالوا معي نخطو خطوة أخرى إلى الأمام حتى نرى عالم المادة وقد تطور إلى حالة نباتية عبر تطور طويل .

أو لم يثبت العلم بأن النباتات ، ما هي إلّا حلقة مادية متطوّرة ؟ أو لم يثبت العلم بأن النبات ما هو إلّا مادّة ولكن على شكل حيوي متطور ؟ وما دامت النباتات هي كذلك ، كان لزاماً علينا التنقيب في عالم النبات عن قوتي الجذب والدفع، والطور الذي بلغتاه فيه، والأشكال التي أتخذتاه في هذا الطور الجديد .

وما الذي يجبرنا على التفتيش عن قوتي الجذب والدفع في عالم النبات ؟ إن الذي يكُرهنا على ذلك ، هو سبب جوهري ذو شعبتين أوّلها ما ثبت علمياً بأن تطور المادة وتحولاتها تكمن وراءها قوى المادة الباطنية الستة من جهة ، وثانيهما هو ما ثبت من أن خواص المادّة لا تتبدّل مهما تبدّل الشيء المصنوع منها . .

فهذان مبدآن سلّم بهما العلم ، وبشكل جازم ، وبصورة لا رجعة فيها . فما عاد هناك مجال للنقاش في صحّة هذين المبدئين . الأول عمل قوى المادة الباطنية في حقل التطور والتحّول . والثاني هو ثَبَاتُ وجود هذه القوى على مختلف المستويات التي تبلغها المادة في تطورها وتحوّلها هذا .

وما دامت النباتات هي في حقيقتها مادة متطورة . فلا بد أن تبرز فيها قوتا الجذب والدفع في طورها الحياتي الجديد . ذلك لأن النبات هو خطوة حياتية متطورة عن عالم المادة .

وهنا يتساءل المرء : وما هو سبيلنا إلى اكتشاف هاتين القوتين في عالم النبات ؟ والجواب بسيط ، وهو تطبيق الطريقة العلمية نفسها التي اكتشفنا بواسطتها هذه القوى وتلك الخصائص في الذرة بشكل عام . أي تطبيق طريقة الملاحظة والتجربة والاستقراء أو الاستنتاج ، بحيث نربط الملاحظات بعضها ببعض ونستنتج القوانين الطبيعية بواسطة هذه الملاحظات، بمعنى أن علينا اللجوء إلى نفس

الطريقة التي اكتشفنا بواسطتها النسبة الثابتة لاتحاد الأوكسجين بالهيدروجين وسواها من المواد .

تعالوا معي إلى النباتات لنُراقب ظواهر التجاذب والتدافع في عالمها وهي على شكلها الحياتي المعروف . دونكم الأزهار أفلا تلاحظون فيه وجود أعضاء سالبة وأعضاء موجبة أو ما نطلق عليه أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث . أفلا نلاحظ حدوث تجاذب بين هذه الأعضاء . هذا التجاذب الذي يؤدي إلى عملية التلقيح في الأزهار هذا التلقيح الذي ينتج عنه هذه الثمار والفواكه التي تقطف من مختلف الأشجار المثمرة فأنّى لهذه الأشجار أن تجود بهذه الثمار والفواكه لو لا عملية التجاذب الحادثة ما بين أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث في النباتات ؟ إنّها نفس عملية التجاذب الحادثة ما بين ذرات الأوكسجين والهيدروجين والتي تشكّل بنتيجتها هذا الماء الذي يعتبر أساساً لكل حياة .

هذا وإن هذا التجاذب الواقع ما بين أعضاء النباتات المذكرة ، وأعضائها المؤنثة ، تختلف شدّة وضعفاً من نبات إلى نبات ومن شجرة إلى شجرة . وتنظم عمل هذا التجاذب قوانين في جميع الأحوال . تماماً كما يحدث في المادة وبين الذرات وهي على شكلها المادي المعروف والبدائي . حيث تحدث عملية التجاذب بين المواد وتختلف شدة وضعفاً من مادة إلى أخرى ، ومن عنصر إلى عنصر . وينظم عمل تجاذبها قوانين تختص بحالاتها المختلفة .

ولقد ثبت وجود شجرة في أمريكة ، إذا ما أدنيت من جسمها جسماً لحمياً أبدت غبطتها وسرورها وانتشرت أغصانها . فإذا ألصقت هذا الجسم اللحمي بجسدها أطبقت عليه وامتصت دماءه ، ثم لفظته . وهذا النوع من النبات هو مثل حيّ يثبت وجود الأحساس في النبات وعلى مستويات مختلفة وإن نفس هذا الأحساس هو الذي يشكل الأساس لعمل قوتي الجذب والدفع المذكورتين .

فحينما تطورت المادة ، وظهرت الخلية النباتية من هذه المادة ، إلى حيّز الوجود . برز فيها الأحساس ، وبرزت فيها صفة التجاذب على شكل تجاذب

شهوة ، وتجاذب سرور حتى بدت فيها صفة الدّفع على صورة الغضب . أقول الغضب لأنه توجد نَبْتَةٌ في الواقع إذا مسست ورقها انقبضت على نفسها ، وإذا مسست ثمرها تفتحت ثمارها ولفظت بذورها وانكفأت على نفسها ، أفلا تُعتبر هذه الظواهر حالة دفع وغضب ؟ ألا إنّ الدكتور بوس عالم النبات الذائع الصّيت أثبت وجود جميع هذه الصفات في النباتات بواسطة الآلات .

وهكذا فإن المادة حينما تطورت إلى الخلية النباتية . ظهرت هذه المادة على أشكال وأنواع لا تُحصى من النباتات . وإذا بقوتي الجذب والدفع تبدوان بألوان وحلية جديدة من الصفات البدائية وعلى أساس من الأحساس البدائي أيضاً ، وضمن قوانين منظمة لها ، وعلى مستويات من هذه الصفات صفات الجذب والدفع ، أو قل صفات التلاقح أو دفع ما لا تحب عن نفسها ، وعلى مستويات تختلف شدّة وضعفاً من نبات إلى آخر .

وهكذا نلاحظ أن المادة لم تفقد قوتي الجذب والدفع التي لها ، حين تطورها إلى شكل نبات . لكنها نتيجة لتطورها هذا ، تطورت فيها مظاهر الجذب والدفع هاتين وتنوّعت وتلوّنت ، حتى برزت بثياب جديدة وبألوان صفات جديدة ، حتى يكاد يحسبها الإنسان في حليتها الجديدة هذه غريبة عن أصلها تماماً على حين أنها هي هي نفس القوى الأولى في حلية جديدة تأتت لها نتيجة عمل ظاهرة التكوين والتنويع والتلوين التي كانت وراء تطور المادة إلى شكل نبات .

ونستنتج من هذه الملاحظات ، وهذا الاستقراء ، بأن ما اتصفت به النباتات من صفات إنما ، تعود في جذورها إلى قوى المادة الأصلية من جذب ودفع وإفناء وإبقاء وإظهار وإخفاء . وقد فعلت ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين وما يتبعها من قوانين فعلها في إعطاء هذه القوى الأصلية أشكالها الجديدة وقوانينها المستجدّة .

وهنا يمكن القول إن قوة الجذب المغناطيسية ، إنما هي أرضية صفة الشهوة والمحبة ، ولكن على أبسط أشكال هذه الشهوة والمحبة . وهل المحبّة ، وهي

الصفة التي يدخلونها في نطاق الأخلاق السّامية ، في حقيقتها إلاّ قوة جذب أو انجذاب بأبسط التعابير؟

من هنا جاءت قوة الجذب والدفع في المادّة لتشكل أرضية هذه الصفات التي تنامت وتطورت وارتقت مع تطور المادة نفسها ورقيها ، جنباً إلى جنب ، وهذا ما جعل قوى الجذب والدفع هي الجذور المادية الحقيقية ، لما ظهر في النباتات من صفات .

وبعد أن تابعنا بروز قوتي الجذب والدفع في النباتات ، وفي حُلّتها الجديدة ، وبعد أن أدركنا بطريق الملاحظة والاستقراء أن جذور هذه كانت في تلك،تعالوا نخط خطوة جديدة أخرى إلى الأمام . تعالوا معي إلى الخلية الحيوانية وعالم الحيوان الذي أثبت العلم أنها مرحلة أرتقائية أخرى من مراحل التطور المادي .

فماذا نلاحظ ؟ نلاحظ أن الخلية الحيوانية مثّلت خطوة تطورية رائعة للصفات النباتية . ولكن بتركيب وتنويع وتلوين أعظم وأوضح من حالاتها النباتية .

كانت النباتات مقيّدة الحركة . بسبب جذورها الغائرة في الأرض . هذه الجذور التي كانت تشدّها إلى أمكنتها وتشل حركتها . فلما ارتقت إلى مستوى الخلية الحيوانية ، وظهرت هذه مجرّدة عن تلك الجذور ، ومتميزة بالحركة والتنقل ، إلى جانب ما فيها من إحساس أوضح . ظهرت قوتا الجذب والدفع اللتان للمادة ، في هذا التركيب الحيواني ، بتركيب صفاتي حركيّ أوضح ويتنوع وتلّون أعظم وأكبر . نلاحظ كيف بدت قوة الجذب التي مثلتها صفة الشهوة كما قلنا ، ذلك في تمايز الذكور عن الأناث ، وفي إنجذاب الذكور نحو الأناث . وانتقلت عملية التلقيح إلى طريقة الجماع . وتمثلت قوة الدفع في نفرة أنثى كل نوع من الأنواع الأخرى الحيوانية . وعادت أنثى الفيل تدفع عنها أنثى الخيل والجمال وسواها . قس على ذلك جميع أنواع الحيوان .

ذلك أنه حدث بين النوع الحيواني الواحد تجاذب . وبين النوعين الحيوانيين تدافع وتنافر .

وقيسوا على ما حدث لصفة الشهوة من تطور ، ما طرأ على سواها من الصفات النباتية من تطور أيضاً . فهذا ميزان ومقياس ، تصلون بواسطته إلى معرفة جذور كل ما اتصفت به الحيوانات من صفات، وأنّ مردّ هذه الصفات جميعها يعود إلى ما في المادة من قوى وما لها من خصائص وأن هذه القوى قد بلغت وأتخذت هذه الصفات التي تحملها الحيوانات، بسبب ما وصلت إليه من تطور بطريق التركيب والتنويع والتلوين الذي أشرت إليها في صدر هذا الكتاب .

كذلك ستلاحظون أن هذه الصفات الحيوانية التي تعود في جذورها إلى قوى المادة الستة ، تختلف شدة وضعفاً من نوع لآخر من الحيوانات ، الإختلاف الذي تختلفه شدة وضعفاً في حالتها المادية الأولى . وما كانت تختلفه شدة وضعفاً في حالتها النباتية المتطورة . وستلاحظون بأن هناك قوانين تنظم عمل هذه الصفات الحيوانية جميعها . قوانين متطورّة بنفس مستوى التطور الذي بلغته المادة في طورها الحيواني .

إنّ صفة الشّهوة التي عبّرت عنها قوة الجذب في المغناطيس ، لأنواع الحديد، هذه الصفة أو الجاذبية المعبّرة عما بين المغناطيس وأنواع الحديد من وشائج الصلّة والمحبة إذا صحّ التعبير ، قد تطورت هذه الجاذبية وسواها في المواد إلى ظهور عضوي التذكير والتأنيث في النباتات ، كوسيلة تجاذب وتواصل ومحبّة بين أنواع النباتات ثم ازدادت تطورّاً عند الحيوانات، فبدت على شكلي الذكور والأناث وما يقع بينهما من تجاذب ومغازلات ومداورات . ورافق هذا التطور كلّه تطورّ في الإحساسات والإدراك في الأشكال المادية الحياتية الجديدة .

إن قوة الجذب ساعدت على ظهور الماء في المادة البسيطة . وإن قوة الجذب هذه في النبات ساعدت على ظهور الفواكه والثمار بأنواعها . كما أن قوة الجذب هذه ساعدت على تكاثر الحيوانات لنستفيد من لحومها وحليبها وصوفها كما يفيد من ركوبها .

وصفة الغضب التي تمثلت في المادة بقوة الدفع . دفع الماء للزيت وإبعاده عن كيانه . ودفع التراب للمنضدة وعدم امتزاجه به . إن صفة الغضب أو الدفع هذه التي تجلت في النّبات في إلقاء الثمرة لبذورها وانكفائها على نفسها لمجرد لمسها . ان صفة الغضب هذه تطورت عند الحيوان أيضاً فأمست يرافقها تعابير الغضب والنفرة . نلاحظ الحيوان عندما يغضب ويسعى لدفع أذى عن نفسه ، تتجلى في عيونه تعابير هذا الغضب ، تتبدّى تقاسيم وجهه تعابير هذا الغضب وتظهر في عضلات جسده تقلصات تعبّر عن غضبه . وقد تنتقل هذه التعابير ومظاهر الدفع عند الحيوان إلى خمش أو ضرب أو غرس أنياب فيمن يريد الحيوان دفع أذاه عن نفسه .

ونستنتج من هذا كله بأن صفات الحيوان الطبيعية ، والتي نستعمل لها كلمة (غرائز) إنما هي حالات جذب أو دفع مادية متطورة في ظواهرها وقوانينها . وتكمن جذورها في قوتي الجذب والدفع التي هي للمادة في حالتها البدائية من غازات وسوائل ومواد صلبة .

وإن قوتي الجذب والدفع الماديتين قد أنتقلتا بعد تطور طويل إلى هذه الصورة المدهشة من الصفات الحيوانية المعروفة . فكانت قوتا الجذب والدفع ، كلّما تطورت المادة بطريقة التركيب والتنويع والتلوين ، توضحت معالمها واتخذت مظاهر جديدة موافقة لهذا التطور ، حتى بدت في النباتات بما أسميناه أحساسات . وبدت في الحيوانات بما أسميناه غرائز . بينما هي في حُللها الجديدة تكاد لا تدرك على أنها هي هي قوى الجذب والدفع المادتين . بسبب ما اتخذته من أشكال جديدة تكاد تخفي حقيقة جذورها الأولى . وقد أدىّ هذا بسبب ما طرأ عليها من تدخل إلى عمل ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين هذه الظاهرة التي هي سرّ تطور المادة وارتقائها كما يدل على ذلك علم التطور والواقع الملموس ، والتجربة الحيّة للإنسان .

فإذا انتقلنا الآن خطوة ثالثة إلى الأمام . خطوة باتجاه الإنسان الذي اعتبرته النظريات العلمية آخر مرحلة من مراحل التطور المادي والنشوء والارتقاء وإذا تتبعّنا قوتي الجذب والدفع وكيفية ظهورهما من خلال هذا الكائن المسمى إنساناً . لاحظنا هاتين القوتين وقد تجلّتا من خلال ما تحلّى به هذا الإنسان من صفات طبيعية ، على شكل متوازن بديع ومذهل ، وعلى صورة شكلت معها أرضية ما يقوم به الإنسان من أفعال قد تتصف بالحسن على مواقعها ، وقد تتصف بالقبح عند سوء استعمالاتها .

رأينا حين الكلام عن القوى المادية أنها تتصّف بالتوازن فيما بينها . فكل جهة موجبة تقابلها جهة سالبة . وكل قوة موجبة تقابلها قوة سالبة . فاليمين يوازنه اليسار والأمام يوازنه الخلف والأعلى يوازنه الأسفل . كما أن قوة الجذب توازنها قوة الدفع وقوة الإفناء تقابلها وتوازنها قوة الإبقاء . وقوة الإظهار توازنها قوة الإخفاء فالتوازن حاصل أصلاً في المادة في جميع الزوايا حتى وفي تركيب الذرة أيضاً فإنه يلاحظ وجود التوازن . فالكهارب توازي في وزنها وزن النواة .

ورأينا كيف انتقل هذا التوازن في المادة إلى النباتات فظهر فيها أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث وما يتبعها من صفات نباتية وكيف انتقل هذا التوازن وتطور إلى عالم الذكور والأناث في عالم الحيوانات وما يتبع هذا من صفات حيوانية سميناها غرائز .

وعلمنا أيضاً من قبل هذا أن قوى المادة وما تتصّف به من توازن ملحوظ ، كانت السّر في تطور المادة وتحولاتها بل وفي تطور النباتات . وتطور الحيوانات أيضاً على وجه يقيني .

ولما بلغت المادة تطورّها الذي تمثّل في هذا الكائن المُسمى إنساناً،فلا بد أن تكون هذه القوى المادية التي ظهرت بواسطته كأرضية من الصفات الطبيعية ، لابد أن تكون هذه القوى والصفات سّر تطور الإنسان أيضاً بكل تأكيد.ولكن كيف سيكون هذا التطور وكيف سيتحقق ، فهذا موضوع لست بصدد الكلام عنه

في هذا الكتاب . بل كل ما هدفت إليه هو تبيان جذور هذه الصفات الطبيعية التي يتصف بها الإنسان . هذه الجذور الغارقة في المادة حتى الذرّة ، والتي تدخل في علم الأخلاق .

أعود إلى ما عبّرت عنه صفة المحبة البدائية والتي جسّمها المغناطيس بقوة الجذب الذي فيه . تطورت قوة الجذب هذه لتبدو في الجاذبية الكائنة ما بين أعضاء التذكير والتأنيث في النبات وقوانينها . وتطورت لتبدو في الذكور والأناث من الحيوانات وما يقع بينها من تجاذب ضمن قوانين محدّدة . ثم لتبدو عند الإنسان أيضاً في الذكور والأناث أيضاً وما يقع بينهم من تجاذب وضمن قوانين . ولم تقف عند هذا الحدّ . بل تنوعت وتلونت هذه الصفة ، صفة المحبة البدائية ، صفة الجذب ، لتبدو في إنجذاب التلاميذ إلى أساتذتهم ، وفي إنجذاب المريدين إلى شيوخهم ، وفي إنجذاب الفقراء إلى محسنيهم . حتى ظهرت هذه الصفة في إنجذاب النفوس نحو الجمال بشكل عام . جمال الوجوه وجمال النفوس وجمال الأخلاق الفاضلة وجمال الورود وجمال الطبيعة . حدث هذا كله وفقاً لظاهرة التركيب والتنويع والتلوين في العالم والتي نبهّتُ إليها وإلى عملها في سُلّم التطور والأرتقاء .

والحق أننا إذا حلّلنا جميع الصفات التي أتصّف بها الإنسان ، فإننا سنلاحظ بأنها ترجع جميعها إلى هذه القوى الست التي تختص بها المادة . ولكنها بدت بثوب جديد . بل بأثواب متعدّدة ومتنوعة .

لنأخذ صفة الشجاعة عند الإنسان : فما هي الشجاعة ؟ إنها صفة دفع من نوع خاص ، متطورة عن خاصية الدفع في المادة . واتصف الإنسان بصفة الشجاعة هذه لدفع الأذى عن نفسه وعن ماله وعرضه ووطنه ودينه . ان صفة الشجاعة إنما هي قوة الدفع المادية المتطورة مع تطور المادة إلى مستوى الإنسان . إن صفة الشجاعة هذه ليست وليدة المصادفة عند الإنسان ، بل هي صفة عميقة الجذور كما قلت . ظهرت قبل الإنسان في شجاعة الحيوانات أنفسها حينما يحدق

بها خطر . شجاعة الذئب والغزالة والعصفورة وسواها من أنواع الحيوان والطير ، وتضحيتها جميعها بأنفسها عندما يحيق الخطر بأولادها وفراخها . وظهرت صفة الشجاعة هذه في النباتات أيضاً فيما لاحظناه من التخلي عن بذورها وانكفائها على نفسها لمجرد لمسها . وظهرت صفة الشجاعة هذه في المادة على أدنى مستوياتها حينما لاحظنا الماء يدفع الزيت من وسطه إلى سطحه وينبذه ولا يمتزج به .

فصفة الشجاعة هذه تعود إذن في جذورها إلى المادة وقواها الذرّية . وليست هي بصفة تلقاها الإنسان من خارجه أو التقطها من سواه أو ولّدها في نفسه . لا ، فما تولّد صفة الشجاعة هذه إلا من جرّاء كون الإنسان حلقه متطورة عن المادة ذاتها . ومن جرّاء ما طرأ على المادة من تركيب وتنويع وتلوين عبر تطورها الطويل الغارق في القدم . فالإنسان خُلق من المادة ، من هذا التراب ، وسيعود إلى هذا التراب . وقد حمل من الصفات ما انطوت عليه ذرات التراب من قوى وخصائص ليس إلاّ ، إنما على صورة متطورة ومتنوعة ومتلونة وسسامية .

إن قوة الدفع المادية لم تظهر في صفة الشجاعة وحدها . بل ظهرت من خلال صفات كثيرة يتصف به الإنسان . لقد تفرعت قوة الدفع هذه فهي إلى جانب ظهورها في لباس الشجاعة قد ظهرت في صفات السباب والشتائم التي تبدو عند ضعاف الناس . فالضعيف يدفع أو يحاول أن يدفع أو يحاول أن يدفع أذى القوي المتجنّي عليه بالسباب والشتائم . وهذه صفة دفع . لكنها أقل مستوى من مستوى صفة الشجاعة في هذا المضمار . وهكذا تكون خاصية الدفع الأولى في الذرة قد عولجت بأسلوب التركيب والتنويع والتلوين لتتجلّى في حُلل جديدة ومدارج عديدة تتراوح ما بين الدفع اللفظي المتمثل في سلاح السباب والشتائم ، وبين الدفع العملي المتمثل بسلاح الشجاعة والإقدام .

كذلك فإن صفة الجُبن والفرار إنما هي فرع من فروع خاصية الدفع المتطورة عن قوى الدفع في المادة . فبالجبن والفرار من ساحة المعركة يدفع الإنسان الخطر المحدق به ، لينجو بنفسه بسلام .

وهكذا ، وعلى نمط هذا التحليل لكل صفة طبيعية يتصف بها الإنسان ، يمكن إرجاع جميع هذه الصفات الإنسانية إلى جذورها المادية النابعة منها ، والمتفرعة عنها ، بطريق التركيب والتنويع والتلوين .

بطريقة الملاحظة والتحليل هذه نصل إلى حقيقة جذور الأخلاق النابعة من قوى الذرّة نفسها ، والتي تطورت حتى شكلت أرضية هذه الصفات الطبيعية التي يتصف بها الإنسان في كل زمان ومكان ، دون تمييز في لونه أو عرقه أو لغته . وعليه فإن جميع ما يتصف به الإنسان والحيوان والنبات من صفات طبيعية فإن مردّه هو إلى تلك الجذور المادية المتمثلة في قوى الذرة الستّ التي تحدثنا عنها . ولا فرق بينها جميعها إلا كما بين البساطة والتعقيد ، أو بين الفردية والتعدّد ، أو بين الجمادية والحيوية ، وبين الوعي واللاوعي ، وبين الإدراك واللاإدراك .

إننا لاحظنا كيف تشابهت ردود فعل الإنسان والحيوان والنبات حتى الجماد . فالإنسان يغضب ، ولحظنا أن الحيوان يغضب أيضاً . والنبات يغضب أيضاً وحتى الذرات تغضب كما رأينا في مثال الماء والزيت . ولا فرق في غضب هؤلاء جميعاً إلا في مظاهر ردود الفعل وحسب . فلإنسان إذا غضب قد يبطش وقد يعفو ويغفر . والحيوان إذا غضب قد يبطش أن يهرب . والنبات إذا غضب قد يعبّر عن غضب بحركة انكفاءأو ذبول أو أحتمال . ذلك لأنه لا يملك ما يملكه الإنسان والحيوان من الاستقلالية الحركية ومن الإدراك ووسائل التعبير . والذرة إذا غضبت تعبّر عن غضبها بالرفض والإصرار على هذا الرفض إلى حدّ ما تملكه من اختلاف في الوزن النوعي أو ما تحمله من عدد الألكترونات ، وإلى حدّ ما بينها وبين سواها من الذرات من علاقة كيميائية وحسب . وقد تُجبر أحياناً على قبول ما يغضبها بفعل عامل الحرارة والكهرباء . ذلك لأنها ما زالت في بداية خلقها وغير قادرة على اتخاذ موقف حادّ صارم مستقل . أما وقد تطورت هذه الذرة وبلغت مرحلتها النباتية . نلاحظ كيف تبدأ تتململ وتبدي أحساسات لا تصل إلى حد الأستقلال في اتخاذ القرار . وإذا ما بلغت طورها الحيواني تبدأ تظهر فيها ردود الفعل المتميزة والتي

اصطلحنا على تسميتها غرائز . ولكن تظل ردود فعلها لا تتسّم بالاستقلالية الإرادية . فإذا ما بلغت الذرة طورها الإنساني نلاحظ أن ردود فعلها لا تعود مجرد ردود فعل على طريقة الغرائز الحيوانية ، بل تصبح ردود فعل واعية وإرادية وتختلف شدة وضعفاً من إنسان لآخر على قدر وعي هذا الإنسان وإدراكه وقوة إرادته . من هنا ندرك بأن القوى هي واحدة في الذرة وفي النبات وفي الحيوان وعند الإنسان ، لكنها تختلف وفق المعايير والنسب التي أتيت على ذكرها والتي توصلنا إليها بطريق الملاحظة والتجربة والاستقراء . أي توصلنا إليها بالطريقة العلمية هذه الطريقة المطبقة في حقل المادة والمواد :

ونخلص من ذلك كله إلى أن الصفات الطبيعية التي اتصف بها الإنسان عبر هذا التطور الطويل ، إنما هي ما أشارت إليها الآية الكريمة [فطرة الله التي فطر الناس عليها] فالفطرة البشرية هي هذه الأرضية من الصفات الطبيعية التي تبلغ في جذورها حدّ الذرّة وقواها . والتي طُورت حتى بلغت مرحلتها الإنسانية هذه مروراً بطورها النباتي وطورها الحيواني . وطورت خلال ذلك كله بأسلوب ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين التي تناولتها بالبحث في أول هذا الكتاب .

فقد عولجت قوى المادة بهذا الأسلوب التطويري ، حتى بلغت مرحلة الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة المذكورة . هذه الفطرة البشرية التي تمثل معراجاً كاملاً لقوى المادة ومعراجاً هادفاً أيضاً . لأنه رافق ظهور الفطرة البشرية ظهور عنصر العقل والإرادة أيضاً لاستعمال هذه الفطرة بارشاد معينّ وهادف . هذه الفطرة البشرية التي تمثّل وجه ربوبيّةٍ مدهشة القوى والعلوم والإمكانيات التقنيّة .

❋ ❋ ❋

قوتا الإفناء والإبقاء

لقد بات معروفاً على النطاق العلمي ، أنّه لافناء للمادة . وذلك تبعاً لقانون لافوازييه ، أو قانون مصونية المادّة فالمادة لا تفنى ، بل تتحول . ومن هذا المنطلق لا تعني قوة الإفناء ، الإعدام الكلّي لها ، بل إعداماً جزئياً وتحوّلاً . فالشيء الذي يغذيني ويساعد على إدامة وجودي وحياتي ، يفنى هذا الشيء في حالته الحاضرة ليتحول إلى حالة جديدة هي جزء من كياني . فهذا هو ما تعنيه قوة الإفناء التي أتناولها بالبحث .

هذا وإن عالمنا حافل بحالات الإفناء هذه . حيث نلاحظ على مستوى الذرة بالذات أن التحوّل يجري طبيعياً واصطناعياً فيما بينها . ففي التفاعلات الكيميائية ، نلاحظ ذرات المادة كيف تغيب لتتحول إلى جزء كيان جديد يختلف عن حالته الأولى تماماً . فإذا أخذنا الكلور ، على سبيل المثال ، في حالة اتحاد ذراته مع ذرات الصوديوم ، ينقلب الكلور والصوديوم كلاهما ، إلى كيان جديد هو ما يسمى بملح الطعام . هذا الجسم اللذيذ الطعم ، والذي لا يُستغني عنه في المآكل على حين نعلم أن الكلور ، وهو في حالته الطبيعية ، مغاير ومختلف تماماً عن ملح الطعام من حيث الشكل والذائقة والمواصفات . وهذا المثال يوضح لنا ما انطوت عليه المادة من قوة الإفناء والإبقاء إذ لو لم تكن هذه الذرات المادية تتمتع بهذه الخصائص والقوى ، لما أمكن لأحد إجراء هذه التفاعلات الكيميائية ، وإجراء هذه التحولاّت في جزئيات المادة.من هنا ندرك وجود هاتين القوتين في المادة ، هاتين القوتين اللتين تبدوان في التفاعلات المادية الكيميائية وفي انحلال المواد ، بشكل واضح ، وضمن قوانين معينة تنظم عملها .

ولاحظنا ، كيف وازت قوة الإفناء قوة الإبقاء . فما فَنِيَ من ذرات الكلور والصوديوم ، تحوّل لتشكيل جسم جديد هو ملح الطعام وهذه قوة إبقاء بمعنى الدعم والتنمية .

وقد بات معلوماً بأن وجود هاتين القوتين ، إلى جانب وجود قوتي الجذب والدفع في المادة ، هو الركن الأساسي في إجراء جميع التفاعلات الكيميائية ، والتحولات المادية التي جرت ، وتجري في عالمنا هذا حيث يعتمد الكيمياويون على ما في المادة من قوى ، ومالها من خصائص ، وما ينظم ذلك من قوانين . في جميع التفاعلات التي يقومون بها لاستحداث مواد جديدة وما شابه ذلك من عمليات . وبينما شكّلت قوة الإفناء ، وجهاً سلبياً ، شكّلت قوة الإبقاء وجهاً إيجابياً . فهذه سالبة وهذه موجبة في جميع أحوالها .

وتعالوا معي إلى هذه المادة في طورها النباتي . فستلاحظون معي عمل قوتي الإفناء والإبقاء في هذ الطور الجديد للمادة . ولاحظوا معي الوجه الجديد لعمل هاتين القوتين في النبات . أوليست صفة التغذّي والتنفّس في النباتات عمليات إفناء وابقاء ؟ وهل يمكن إنكار ما يحدث في النباتات من تفاعلات كيميائية في حالات التنفس والتغذي هذه ، هذه التفاعلات التي تحول المواد المستنشقة والمُتغذى بها ، إلى مواد جديدة تُغني كيان النبات وتساعد على الإبقاء عليه

ولولا اختصاص المادة بقوتي الإفناء والإبقاء ، لما برزت ظاهرتا التغذي والتنفس في النباتات التي تشكل مرحلة تطورية للمادة . وندرك من ذلك بأن قوتي الإفناء والإبقاء إنّما هما جذران لهذه الصفات النباتية الحادثة .

أجل ، ان النبات يتنفس : يستنشق الفحم نهاراً ويزفر الأوكسجين . ويحدث العكس ليلاً . ولكن كيف يحدث هذا كله ؟ كيف يفنى النبات كميات الفحم من الهواء ؟ يتم هذا بواسطة تفاعلات كيميائية في نسج النبات ، كما يحدث تماماً في المخابر وأجهزة التحليل أو التركيب . فالنبات يستنشق الكربون ، وهذه

عملية إفناء للكميات الكربونية الموجودة في الهواء . والنبات يزفر الأوكسجين ، وهذه عمليات إبقاء ودعم لكميات الأوكسجين في الهواء أيضاً .

هذا ، وإن عملية التنفس هذه إتصف بها الحيوان والإنسان فضلاً عن النبات . ومعلوم أن الحيوان والإنسان إنما هما طوران جديدان متطوران عن المادة ذاتها . وعمليات التنفس عندهما تحدث فيه نفس التفاعلات الكيميائية التي حدثت في البنات ، والتي تجري في المادة استناداً لقوتي الإفناء والإبقاء . فهي المادة هنا وهناك . وهي قوى هذه المادة وقوانين عملها أيضاً ، هنا وهناك . وإن وجدت من فروق بينها جميعها ، فبسبب ظاهرة وعمل التركيب والتنويع والتلوين كعامل تطويري ليس إلاّ . وأنه كما حدث في موضوع قوتي الجذب والدفع . فقد حدث أيضاً في موضوع قوتي الإفناء والإبقاء هاتين حيث بدت جميع هذه القوى ، بعد تطور المادة ، بتركيب صفاتي وتنويع وتلوين جديدين . فهذه القوى برزت في أطوار المادة الجديدة بظواهر صفاتية متعددة الوجوه . إضافة إلى صفتها الأصلية التي يشكل محورها هذه التفاعلات الكيميائية وتلك التحولات ، والقوانين المنظمة لعملها جميعها .

إن صفة التنفّس والتغذي في النبات هي أبسط مظاهر تطور هاتين القوّتين التي تختص بهما المادة . وهذه الصفات تطور طابعها عند الحيوان والإنسان ، حيث تطورت فيهما الأجهزة التنفسية وأجهزة التغذية .

وعندما بلغت المادة طور الكائن المسمى إنساناً ، لم تبق هذه الجذور من القوى على بساطتها ، بل تنوعت وتلونت وبرزت في حلل إضافية يكاد الإنسان لا يعرف جذورها من شدّة الفروق التي برزت فيها . فلقد برزت قوى الإفناء والإبقاء في جبلة الإنسان على صورة صفات متعدّدة . حيث كانت جذور صفات الحقد والتهوّر والغزو والقتل والإغارة ، إلى جانب صفات السّخاء والأمل والإحسان وسواها من الصفات . فإذا أنعمنا نظرنا في صفات الحقد والتهور والغزو والقتل والإغارة وجدناها أشكالاً جديدة لقوة الإفناء . وهكذا إذا أنعمنا

نظرنا في صفات السّخاء والأمل والإحسان ، فسنجدها أشكالاً جديدة لقوة الإبقاء . وإن قوتي الإفناء والإبقاء اتخذتا شكل هذه الصفات التي جبلت عليها النفس البشرية ، بسبب ما لحق بالمادة عند تطورها من تركيب وتنويع وتلوين وعبر تطورها الطويل .

أوليس التهوّر في كل أمر يكون مدعاة لإفناء المتهوّر ؟ فلئن تصدى الإنسان لوحوش الغابة دون تخطيط ، ودون الأسلحة اللازمة ، أفلا يصبح هذا المتهوّر منهباً لأنياب وحوش الغابة الكاسرة ؟ أوليست هذه العملية إفناء للذات بداعي التهوّر والمغامرة ؟

وإذا أنفق الإنسان أمواله يُمنة ويسرة دون حساب أو قيد ، مندفعاً بروح التبذير ، أفلا يكون مصيره إلى الفقر والعدم والإفلاس ، لا محالة ؟ أوليست هذه الصفة في حقيقتها ، عملية إفناء وإفقار ؟ وإذا انغمس الإنسان في شرب الخمرة حتى الإدمان ، أفلا يؤدي هذا به إلى خمول عقله ، وضياع منزلته في قومه ، وذهاب وقاره ، وحرمانه أخيراً من نعمة الوعي والتفكير المتّزنين ؟ بل انتهائه للاصابة بمختلف الأمراض الجسمانية ؟ أوليست هذه كلها عمليات إفناء للقوى والذات ؟ .

أجل إن من يلاحظ صفة التهوّر هذه ، على مختلف مستوياتها ، ووجوهها ، لابَد يوقن بأنها نابعة من جذر مادي معروف هو قوة الإفناء التي تتصف بها المادة في أبسط أشكالها . هذا الجذر الذي يكمن ، كما رأينا ، وراء جميع التحولات والتفاعلات التي تحدث في المادة . ولقد برزت هذه القوة ، في هذا الإنسان المادي المتطور ، في جبلته ، على أشكال وصفات عديدة منها صفة التهوّر التي رأينا مصاير الإفناء المترتبة عليها .

ولاحظوا صفة الحقد عند الإنسان ، أوليست نابعة من قوة الإفناء التي تتصف بها المادة ؟ إن الحقود يعيش على سلسلة من التفاعلات الكيميائية في دماغه وأعصابه نتيجة لنار الحقد المتأججة في صدره . وقد ينتهي الحقد بصاحبه إلى

أرتكاب جريمة قتل ، أوهضم لحقوق إنسان ، أو يؤول إلى إتلاف مال الحاقد في سبيل التّنفيس عن حقده . وهذا كما نلاحظ إفناء بإفناء . ذلك أن الحقد قوة إفناء بطريق التحويل والتفاعل .

وكيف تعمل قوى الإفناء في المادة ؟ يتجلّى عمل قوة الإفناء في المادة حينما نجمع في مختبر بين عدّة عناصر ، وبواسطة الحرارة تتفاعل هذه العناصر ، ويتحد بعضها ببعض لتكون هذه العناصر موادٌ جديدة هي حصيلة هذا التفاعل . ويساوي وزن المواد الحاصلة ، وزن المواد المتفاعلة حتماً . والمهمّ أن هذه العناصر تتغيرّ بواسطة التفاعلات . وهذا ما يحدث في جسم الإنسان عند التنفس ، وعند التغذي ، بل عند الحقد والحسد والغضب وسواها من الحالات النفسية أيضاً . إذ أن هذه الصفات هي في حقيقتها مولدات حرارية نفسية تتسبب بكثير من التفاعلات في جسم الإنسان ، ويؤدي كلٌ حسب وضعيته إلى الإخلال فيما اختزنه جسم الإنسان من مواد سكرية ودهنية وسواها . ويصاب الإنسان بنتيجة هذا الخلل الواقع في هذه المخزونات ، يصاب بكثير من الأمراض وهو لا يدري السبب الحقيقي الباعث على هذه الأمراض . ولقد ثبت علمياً ، كما ذكرت سابقاً ، بأن ٩٠٪ من أمراض الإنسان منشؤها نفسي ليس إلاّ . فما هي الأسباب النفسية الباعثة على الأصابة بهذه الأمراض . إنها هذه الصفات الطارئة في جبلّة الإنسان ، والتي تحوّل جسمه المادي عن وضعه الطبيعي ، إلى وضع فيزيولوجي شاذ وطارىء ، يتمثل في حالات غضب شديدة ، أو في حقد أسود يعمر فؤاده ، يكاد ينفجر جهازه العصبي ويضطرب بسببه . وقد يُصاب الإنسان نتيجة لذلك بنوبات عصبية ، أو بجلطة دموية ، أو بمرض السكري ، أو بما يشابه هذه الأمراض المتأتية أصلاً عن هذه الصفات الطارئة على جبلة الإنسان بسبب أصله المادي وما فيه من قوى الإفناء والإبقاء .

فالحقد إذن إنّما هو مولدّ حراريّ ، إن صحّ التعبير ، وقوة إفناء لما يحدثه في جسم الإنسان من تفاعلات . ذلك أن الحقد هو صفة ووجه جديد لقوى المادة ،

وعلى صعيد الجسم الحيوي المتطور الذي نسميه جسم الإنسان . فمن أدرك هذه الحقيقة ، واستيقنت بها نفسه ، لابدّ أن يشرع في تجنب سيطرة هذه الصفة عليه ، وما شابهها من الصفات ، تجنباً لنفسه العواقب الوخيمة ، والإفناءات التي تحدثها هذه الصفات في جسده ، واتّقاءً للأمراض المتأتية عن الإفناءات هذه نتيجة التفاعلات الحادثة بسببها .

وبإمكان أي إنسان ملاحظة هذه الصفات ، والآثار التي تتركها ، ليدرك من وراء ذلك جذورها النابعة منها والغارقة نزولاً حتى ذرات المادة وقواها . وليعرف بأن هذه الصفات إنّما هي وجوه جديدة لقوى الإفناء والإبقاء لكن بثياب جديدة متطورة ومتنوعة ومتلونة بحيث يكاد المرء لا يربطها بجذورها المتطورة عنها ، تلك الجذور الستة المؤلفة لقوى المادة الأساسية من جذب ودفع ، وإفناء وإبقاء ، وإظهار وإخفاء .

لاحظوا وصايا الأطباء وكيف ينصحون الناس بتجنّب الإتصاف بهذه الصفات . ولاحظوا كيف أوصت الأديان بالإمساك والإبتعاد عن شواطىء هذه الصفات . ما كانت هذه النصائح وتلك النواهي ، إلا بسبب ما تحمله صفات الإفناء هذه من أخطار على الإنسان نفسه . ذلك لأن الإنسان هو كائن مادي متطور ، يحمل في جبلّته قوى المادة المتطور عنها ، بأشكال وأنواع وألوان متعددة وجديدة ، كل هذا بسبب أصله المادي .

والآن عودوا معي نزولاً في معراج التطور . ملاحظين عالم الحيوان الأقل تطوراً من عالم الإنسان . ملاحظين أن عالم الحيوان وهو عالم متطور عن المادة أيضاً . فستلاحظون بأن مختلف الحيوانات عُرضة للغضب والحقد والحسد وسواها من صفات قوى الإفناء . ولكن على أشكال أقل فعالية ، وأقل عدداً . وبألوان أبسط مما ظهرت فيه عند الإنسان .

لاحظوا كيف يغضب الإنسان ، كذلك تغضب الحيوانات ، والإنسان يحقد ، وستلاحظون حيوانات تحقد . وإن حقد الإبل معروف لدى كل من عاش

في البادية وعلى أطرافها . وإن الإنسانَ يحسد . وإنكم لتلاحظون في أعين بعض الحيوانات نظرة الحسود . وإن الإنسان يغزو ويقتل ، وستلاحظون غزو الحيوانات بعضها لبعض ، وأعمال القتل التي ترتكبها بعضها ضد بعض . ويمكن مشاهدة ذلك في مسلسلات الحيوان على اجهزة التلفاز . فإذا دقّقتم في هذه الصفات عند الحيوان ، ستجدون بأنها تجري وتظهر على نطاق ومستوى أضيق وأقل ممّا هو عند الإنسان . ذلك لأن الحيوان في حقيقته يشكل درجة مادية أقلّ تطوّراً من درجة الإنسان المادية فالإنسان هو الأعظم تطوراً . وهذا ما جعل الحيوان على هذه الصفات ، ولكن أقل تنوعاً وتلوناً منها عند الإنسان .

إن أسلوب الملاحظة سيصل بكم إلى أن غضب الحيوان يكون على نطاق أضيق من نطاق الإنسان وغضبه . وعلى درجة من الحدّة أقل ممّا هو عند الإنسان . وفترة غضب الحيوان أقصر أيضاً من الفترة التي يستغرقها غضب الإنسان . وهذا الفارق يؤدي من ثمّ إلى فارق في الأمراض والنتائج المترتبة على هذه الصفات عند الحيوان أيضاً .

وانزلوا معي درجة أخرى في مجال تطور المادة ، أنزلوا باتجاه النباتات . هذه الموجودات الأقل تطوراً من عالمي الحيوان والإنسان . هذه الكائنات التي امتازت عن عالم الجماد بما بلغته من تطور ، وما ظهر بينهما من فروق . فستلاحظون معي أن قوّتي الإفناء والإبقاء ما بدت في النباتات على صورتي صفتي التنفسّ وحدهما . بل ظهرت على شكل بدايات أيضاً لما تكلمنا عنه من صفات الغضب والحقد وسواها لدى الحيوان والإنسان . أقول بدايات غضب ، كما أثبت ذلك علماء النبات بطريق البحث والاستقراء واستعمال الآلات . وقد ضربت لكم مثالاً ممّا اكتشفوه . وهو تلك النّبتة التي تغضب لمجرد المساس بثمارها . من ذلك تدركون بأن أرضية تنوع وتلون قوى الإفناء والإبقاء بدأت منذ ظهور النباتات المتطورة عن المادة . وهذا أمر يؤكد أن جذور هذه الصفات جميعها منحصر في قوى المادة الستّ من جذب ودفع ، وإفناء وإبقاء ، وإظهار وإخفاء .

وحاصل القول هو أن قوتي الإفناء والإبقاء بدتا في أول درجات تطور المادة ، وفي النبات بالذات ، بدتا بمعالم جديدة أكثر تنوعاً وتلوّناً . وازداد بروزهما عند الحيوان الأكثر تطوراً من النبات ، ازداد شدّة ووضوحاً وظهوراً . ازداد قوة وضعفاً بين حيوان وآخر . ثم بدت هاتان القوتان الإفناء والإبقاء ، في جبلّة الإنسان على نطاق أوسع ، وبمعالم أجلى ، ونتائج أبعد ودرجات أعظم تنوعاً وتلّوناً .

وقد رافق تطور هاتين القوّتين ، ظهور الإحساس عند النبات ، والإدراك المحدود الغريزي عند الحيوان ، والإدراك المتعقلّ عند الإنسان . كما رافق ذلك ما امتاز به الحيوان من حيوية الحركة بالنسبة إلى النبات ، وذلك بسبب تخلصه من الجذور التي كانت تربط النبات بالأرض . كما رافق ذلك كلّه امتياز الإنسان بقوة الإرادة وعلى سائر ما دونه من الأشياء .

والملاحظ عند الإنسان هو أن جبلته حملت صفات مركبة أيضاً . صفات متعددة الجذور . فالغضب ، على سبيل المثال ، صفة ناشئة ومركبة من جذرين ، تحمل قوة الدفع وقوة الإفناء في آن واحد . والإحسان كمثال آخر هو صفة ناشئة ومركبة من جذرين . فبينما تحمل صفة الإحسان قوة الإفناء ، فإنها تحمل إلى ذلك قوة الإغناء في آن واحد . ذلك بسبب أن الإحسان عندما يغني المحسن إليه ، فإنّه يفني ، في الوقت نفسه ، مال المحسن ومتاعه . وعلى هذه الشاكلة يمكن اكتشاف الصفات المركبة عند الإنسان .

***

قوتا الإظهار والإخفاء

قد بات معلوماً عند كل مثقف أن الذرة هي أصغر جزء مادي يمكن وجوده بحيث لا يمكن انقسامه إلى أجزاء أصغر منه . وقد استطاع العلماء ، عن طريق التجارب المختبرية ، والحسابات الدقيقة ، تحديد حجوم الذّرات بأنواعها . وثبت لهم أن الذرة هي ما لا يمكن رؤيته ، حتى ولو استخدمت في ذلك أقوى المجاهر . ذلك لأن الذرة متناهية في الصّغر . وقد يحتاج الإنسان إلى وضع مليون ذرة ، جنباً إلى جنب ، ليشكل منها ثخن ورقة من ورقات هذا الكتاب ، لتتمكن العين من رؤيتها .

إذن ، ورغم أن الذرة متناهية في الصغر . فهي تحمل قوة الإظهار أو الظهور . وذلك بتجمّع الذرات بعضها إلى بعض . والحقيقة هي أنه لا يوجد علمياً شيء صلب ومتواصل . بل كل ما هنالك أن هناك ذرات دقيقة متجمعة بعضها مع بعض ، ومتراصة ، مع وجود فجوات فراغية بينها . وعلى قدر هذا التّراص فيما بينها ، تبدو الأشياء صلبة أو سائلة أو غازية .

فالذرة إذن ، من خواصها أنها تختفي وتظهر . تختفي إذا ابتعدت بعضها عن بعض . وتظهر إذا تراصت وتجمعت بعضها مع بعض ، حتى إن الذرات حين تجمعها ، وتشكيلها للأجسام ، تظل تختص بقوتي الإظهار والإخفاء هاتين . حيث إن كل جسم بإمكانه إخفاء جسم آخر وراءه . أو الإختفاء وراء جسم آخر سواه .

إن قبضة اليد يمكن أن تخفي قطعة نقود . والغيوم يمكن أن تحجب عنا أشعة الشمس . ثم إن تربة الأرض تخفي جذور النباتات . كما أن جذور النباتات تختفي في أعماق التربة الأرضية . من هذا كله ندرك معنى قوتي الإظهار والإخفاء اللّتين تختص بهما المادة . والحق أن ظاهرة الإظهار والإخفاء في المادة تبدو في كل وجهة يتوجّه إليها المرء في حياته ، بل في كل خطوة يخطوها .

وانطلقنا سابقاً من أن تطور المادة وتحولاتها تكمن وراءها تلك القوى التي هي للمادة من جذب ودفع وإفناء وإبقاء وإظهار وإخفاء . وأن هذه القوى لا تتبدّل مهما تبدل الشيء المصنوع منها والناشيء عنها . فقوى المادة هي وراء كل تطور وتحول مادي .

وإننا إذا لاحظنا النباتات ، نجد وضوح معالم هاتين القوتين عندها . وتزداد وضوحاً عند الحيوان الذي تخلّص من الجذور الأرضية ، والذي اتسمّ بالحركة والتنقل . ولقد جلّى وجود الإنسان هاتين القوتين المذكورتين بأجلى أبعادها ومعانيها .

لكن الذي ألفت النظر إليه ها هنا ، هو أن ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين التي تكلمت عنها مقدماً تراءت في مختلف أطوار المادة هذه . حيث نلاحظ حدوث هذا التركيب والتنويع والتلوين في أطوار المادة المختلفة خصوصاً في جبلة الإنسان . إذ ظهرت في جبلته قوتا الإظهار والإخفاء على صور صفات مختلفة ، عنصرها الأساسي هو الإظهار أو الإخفاء . أو الظهور أو الإختفاء .

والإنسان ، كما هو معلوم ، يمثل آخر مراحل ارتقاء المادة ، فمن راقب هذا المخلوق المدهش الأخّاذ ، من زاوية متابعة ظهور قوتي الإظهار والإخفاء ، في جبلّته ، يلاحظ أن هذا الإنسان اتصف ، على سبيل المثال ، بصفة التكبّر والكبرياء . وصفة التكبّر هذه ، في حقيقتها ، إنما هي محاولة ظهور على الآخرين . إنها صفة استعلاء . وبغض النظر عن القوانين والدوافع التي تنظم

ظهور هذه الصفة ، فإنها تمثل على كل حال قوة الظهور أو الإظهار المادية في ثوبها ولونها الجديدين ، في جبلة الإنسان .

وإن كل من يُبتلى بصفة التكبّر ، يشعر من حوله بأنه إنسان يستعلي عليهم . إنه إنسان لا يرى المساواة ما بينه وبين أقرانه . يرى نفسه ارفع منهم إما ذكاءً أو مالاً أو جاهاً . ويعبّر المتكبّر عن تكبّره بكلمات منتقاة ، وبسلوك متميّز . حتى إذا تهامس أقرانه فيما بينهم ، قالوا : إن صديقنا هذا هو إنسان متكبّر يريد أن يفخر علينا بذكائه أو بماله أو بجاهه . ولنتساءل : ومن أين تأتت صفة التكبّر إلى جبلة الإنسان ؟ ولا نجد الجواب إلاّ في القول إنها صفة تعود في جذورها إلى قوى المادة المتطورة عنها . تعود إلى الذرة ، وإلى قوة الإظهار والإخفاء . ذلك أن الإنسان هو مادة متطورة ، وأن صفاته إنما هي قوى هذه المادة ، وعلى صورة متطورة أيضاً .

ونلاحظ أن الإنسان قد اتصف بصفة الأنانية أيضاً (أي الأثرة) وما صفة الأنانية هذه ، في حقيقتها ، إلاّ وسيلة إظهار النفس على الأقران وسواهم . وبغض النظر عن القوانين والدوافع التي تنظم ظهور هذه الصفة عند الإنسان ، فإنها تمثل على كل حال ، قوة الظهور والإظهار المادية في ثوب جديد ولون جديد ، تبدو من خلال جبلة الإنسان . فما هي الأنانية ؟ إنها تفضيل النفس على الآخرين واستئثارها دونهم بكل شيء . ويضادها صفة الإيثار التي تعني تفضيل الآخرين على النفس . إن الأناني هو من سعى لمصلحة نفسه على حساب الآخرين ، مستهيناً بما للآخرين من حقوق ، ومفضلاً نفسه على نفوسهم ومصالحه على مصالحهم . فإذا حلّلنا هذه الصفة وجزّأناها ، تبدو أنها تدور حول عنصر التفضيل والظهور على الآخرين ليس إلاّ . فالأناني يحاول تجاوز القوانين والأنظمة المرعية . يحاول خرق التقاليد والأعراف . يحاول نبذ القيم في التعامل . فلماذا تبدو في الأناني كل هذه المظاهر ؟ إنه حب الذات وحب الظهور ليس إلاّ . فحيث يُفترض أن ينتظم الأناني ضمن قطار المنتظرين لحصصهم من اللحم أو الخبز أو ما شابه ذلك . نلاحظ أنه يتجاوز هذا القطار من الناس ، وأمام أعينهم ، غير

عابىء بنظرات الاشمئزاز أو بعبارات التأنيب الصادرة عنهم . يتجاوزهم لأنه ، في قرارة نفسه ، يريد أن يظهر لهم : أنه نافذ الأمر ، أو أنه صاحب حظوة عند هذا المسؤول أو ذاك ، أو أنه ذو سطوة يُحسب حساب شرّه - إنها جميعها صفة الظهورقوة الظهور التي تحثه في لا شعوره أن يضرب بالقيم والنظام والقوانين عرض الحائط ، مُمنّياً نفسه بالحصول على ما يريد قبل سواه . ويتساءل المرء : ومن أين تأتت صفة الأنانية إلى جبلّة الإنسان ؟ ولن يجد الجواب الشافي إلّا في ملاحظة أنها تعود في جذورها إلى قوى المادة التي تطورت منها . تعود إلى الذرة وما فيها من قوى الإظهار والإخفاء . وذلك بسبب أن الإنسان مادة متطورة . وأن صفاته إنما هي قوى هذه المادة وبشكل متطور أيضاً تبعاً لظاهرة التركيب والتنويع والتلوين .

ونلاحظ أن الإنسان يتصف بصفة الرّياء . وأن صفة الرّياء هذه إنما هي محاولة ظهور ليس إلّا . وبغض النظر عن القوانين والدوافع التي تنظم ظهور هذه الصفة . فإنها صفة تمثل قوة للظهور أو الإظهار المادية ، ولكن بثوب جديد ولون جديد ، من خلال جبلة الإنسان المتطور عن المادة . إن المرائي يتظاهر بما ليس فيه . يتظاهر بالنسك ، وهو بعيد عن التقوى . ويتظاهر بالعفّة وهو شديد الحرص على جمع المال وإشباع شهواته . يتظاهر بالأمانة ، ويكون أكبر المرتشين الخائنين لأماناتهم . وكيف نفسّر صفة الرياء ووجودها في جبلة الإنسان ؟ ولا نجد لأنفسنا جواباً إلّا في أن هذه الصفة يعود وجودها في الجذور إلى المادة وقواها . إلى الذرة وما تحمله من قوى الإظهار والإخفاء . والسبب في ذلك هو أن الإنسان مادة متطورة . وأن صفاته هي قوى متطورة عن قوى هذه المادة أيضاً . وظهرت على هذه الصورة بسبب عمل ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين العاملة وراء تطور كل شيء في هذا العالم .

هذه نماذج صفاتية ثلاثة بما يختص بقوة الإظهار أو الظهور ، عند الإنسان . ومثل هذه الصفات كثير ، أذكر منها : على سبيل المثال لا الحصر ، صفة إفشاء السرّ عند الإنسان فهي خاصة ظهور . وصفة قلة الحياء إنما هي محاولة ظهور .

وحتى صفة الشجاعة يكون منبعها في بعض الأحايين داعي الظهور . وصفة الصدق أيضاً منبعها أحياناً داعي الظهور . ومن هذا ندرك بأن صفتي الشجاعة والصدق هما صفتان مركبتان . فبينما تنبع الشجاعة من قوة الدفع أحياناً ، فإنها تنبع من قوة الظهور أو الإظهار أحياناً أخرى . ومثلها صفة الصدق أيضاً .

ولنلاحظ مستوى صفة الحياء عند الإنسان كمثال على قوة الإخفاء . فما الحياء إلا محاولة إختفاء أو إخفاء . هذا بغض النظر عن القوانين والدوافع التي تنظم ظهور هذه الصفة . إن ملاحظة صفة الحياء توضح لنا أنها قوة الإخفاء بثوب ولون جديدين . ويتساءل المرء : لم يتملك الحياء المرء في بعض المواقف ؟ والجواب أنه يتملكه الحياء عندما يتضح له أنه افتضح كذبه في شهادته وكلامه حتى إنه يتمنى أن تنشق الأرض فتبتلعه ، وما هذا الحياء على هذه الصورة إلا محاولة إختفاء . ويتملك الحياء المرء إذا بدت منه خيانة أو افتضح أمر تنسّكه الزائف . وهذه مواقف إختفاء ليس إلاّ . والفتاة إذ يتملكها الحياء في المجالس . لا تبدو منها هذه الصفة إلاّ إذا كانت تستحي بلباسها أو بسوء منظرها وشكلها وهذه كلها محاولات إختفاء ليس إلاّ . وكيف نفسّر صفة الحياء ووجودها في جبلة الإنسان إذن ؟ لن نجد لأنفسنا جواباً إلاّ في أن هذه الصفة تعود في جذورها إلى المادة وقواها . إلى الذرة وما تحمله من قوى الإظهار والإخفاء . والسبب في ذلك هو أن الإنسان مادة متطورة . وأن صفاته إنما هي قوى مادية متطوّرة أيضاً . وظهرت على هذا التركيب والتلوين وبهذه الحدّة ، بسبب فعل ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين العاملة وراء تطور كل شيء في عالمنا المحسوس .

ونجد ، استناداً إلى هذا القياس ، صفات عديدة أخرى يتصف بها الإنسان ، وتعود في منشئها وجذورها إلى قوة الإخفاء أو الإختفاء المادية . كصفة التوكل عند الإنسان وإنما هي وسيلة إخفاء الضعف عند المتصّف بها . وصفة الغفلة ، ما هي إلا وسيلة إختفاء أو إخفاء أيضاً بمعنى من المعاني . وصفة الاستهزاء ما هي إلا وسيلة إخفاء معنوية.وصفة المزاح ما هي إلاّ وسيلة إخفاء

جهل المازح أو تغطية لضعفه ، أو تهربه من الحقيقة . كذلك صفة شهادة الزور إنما هي صفة إخفاء للحقيقة أو صفة كتمان السرّ إن هي إلا صفة إخفاء لما في الصدور . حتى صفة الكذب ما هي إلا ثوب جديد لقوة الإخفاء التي تنطوي عليها المادة في أبسط أشكالها ، والتي تحلّت هنا بهذا الوجه قلباً للحقيقة وتغطية لها وإخفاءً . فإذا تساءل أحدنا عن أصل هذه الصفات جميعها ، هذه الصفات التي تبدو في جبلة الإنسان . فلن يجد جواباً شافياً إلاّ إذا أدرك أنها تعود في جذورها إلى المادة وقواها من جذب ودفع وإفناء وإبقاء وإظهار وإخفاء . تعود إلى هذه القوى التي تطورت بفعل ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين العاملة وراء التطوّر والإرتقاء .

والآن إذا نزلتم درجة في مضمار التطور المادي وإذا التفتّم إلى هذا المخلوق المسمى حيواناً . فلا يخلو أي حيوان من هذه الصفات المتطورة عن قوى الإظهار والإخفاء أيضاً،ولكن على نطاق أقل سعة وشدّة .

دونكم ديك الحبش ، لاحظوا كيف ينفش ريشه ليبدو أكبر من حجمه وقدره . حتى أصبح نتيجة لهذه الصفة تتملكه ، أقول أصبح مضرب الأمثال . كمثله الطاووس يلجأ إلى نفس هذه الوسيلة للتظاهر . وحتى القطط إذا ما واجهها كلب ، تلاحظون كيف تنفش شعر جسمها لتبدو في عين عدوها أعظم من حجمها الطبيعي . وأن القطة ، إذا ما سرقت قطعة من اللحم من على مائدة أصحابها ، وهمّوا بضربها ، تخفض رأسها خجلاً وكأنها تحاول التستر على ذنبها هذا بهذا الأسلوب .

والحيوانات تتمازح فيما بينها . وتلاحظون كيف تمازح الأم صغارها . وهذا يشاهد في كل المستويات الحيوانية . وما مزاح هؤلاء إلا إخفاء قوة طرف في وجه طرف آخر .

كذلك نجد صفة الاستهزاء بارزة عند كثير من الحيوانات . ومن منا لم يشاهد القطة وهي تهزأ بالفأرة بعد إمساكها بها ، وقبل أن تعمل فيها تمزيقاً وإلتهاماً ؟

وإن هذه الصفات الحيوانية تنظمها قوانين ودوافع ولا ريب . لكننا نستنتج بطريق الملاحظة والتجربة أيضاً أن هذه الصفات إنما هي أشكال متطورة عن قوى المادة من إظهار وإخفاء . ذلك لأن الحيوان مادة متطورة ، وأقل تطوراً من الإنسان .

أما مرحلة النبات التي تعد أقل درجة تطورية من الحيوان . فأترك لعلماء النبات أمر تحديد وجوه هذه الصفات فيه لدقّتها وصعوبة تفسيرها إلا بالآلات الدقيقة الخاصة .

وزبدة الكلام هي أن قوتي الإظهار والإخفاء . أو الظهور والإختفاء إنما تشكلان جذور كثير من الصفات التي يتصف بها النبات والحيوان والإنسان بكل تأكيد .

***

مجمل نظرية جذور الأخلاق

وبعد أن أتيت على تفاصيل نظرية جذور الأخلاق ، أعود فأجملها بأسلوب مختلف وألفاظ جديدة .

والحقيقة أن الأخلاق ، أو صفات الإنسان الطبيعية بالتحديد ، تصل في جذورها إلى قوى ستّ تختص بها الذرة المادية . وهي قوى الجذب والدفع ، وقوى الإفناء والإبقاء ، وقوى الإظهار والإخفاء . ولا تتجلى هذه القوى ، متطورّة ، في جبلة الإنسان وحده على شكل صفاته الطبيعية . بل تتجلى أقل تطوراً في جبلة الحيوان والنبات أيضاً .

ما يثبت هذا ، هو أن الحيوان تصدر عنه أفعال تشابه أفعال الإنسان . فالإنسان يغضب ، وهكذا الحيوان يغضب وكذلك النبات يغضب . والإنسان يحب ويشتهي ، كذلك الحيوان يحب ويشتهي وكذلك النبات يحب ويشتهي . فقد ثبت بأن جميع النباتات مؤلفة من أجناس مذكرة ومؤنثة أو تحمل أعضاء تذكير وأعضاء تأنيث . ولقد عُرف ذلك عن النخيل منذ ألوف السنوات . وما وجود أعضاء التذكير والتأنيث إلا دليل وجود الشهوة عند النباتات ، إنما بدرجة أقل شدّة مما هي عند الحيوان والإنسان ، بسبب فرق درجة التطور المادي الكائن بينهم جميعاً .

هذا وإن أرضية هذه الصفات جميعها ، تحملها قوى المادة . وما المغناطيس إلا مثال حيّ على وجود الشهوة في المادة أيضاً ، هذه الشهوة التي عبرت عنها قوة الجذب في المغناطيس . علماً بأن حقيقة المحبة قائمة على عمليات تجاذب لا أقل ولا أكثر .

وإن قوى المادة الستّ المذكورة هي وراء كل تطور مادي في عالمنا . فلولاها ، لما تكوّن هذا العالم ، ولا كانت قد خلقت فيه هذه العوالم ، ولا كانت تطورت إلى ما تطورت إليه . من هنا كانت الصفات الطبيعية التي فطر الإنسان عليها هي أساس تطوره ورقيه ، إذا أحسن أستعمالها وفهم مراميها . ومن هنا تتجلّى العلاقة الوشيجة التي تربط الأخلاق بالمادة وقواها ، هذه القوى التي تشكل في حقيقتها جذور الأخلاق .

والذرة أصلاً تحدّدها جهات ستّ هي : أمام وخلف ، ويمين ويسار ، وأعلى وأسفل . وهذه الجهات تلازم الذرة في جميع تطوراتها وتحولاتها وتفاعلاتها ، كما هو الحال في قوى الذرة الباطنية الستّ التي ذكرناها . لذلك نلاحظ بأن هذه الجهات الستة تحدد النباتات أيضاً ، وتحدد الحيوانات ، كما تحدد وجود كل فرد من أفراد بني الإنسان . وينتج عن ذلك أن قوى المادة تلازم المادة في جميع تحولاتها بحيث لا تبتدل مهما تبدل الشيء المتطور عنها . ولا يكون الفرق إلّا فرق الشكل والصورة واللّون هذه الفروق التي تظهر به هذه القوى في أطوارها المختلفة ، وذلك تبعاً لظاهرة التركيب والتنويع والتلوين الفاعلة في هذا الكون .

وإن جهات المادة وقواها قائمة على أساس السالب والموجب والمذكر والمؤنث . وبهذا التوازن والتضاد ، تحقق كل توازن قائم في جميع أطوار المادة . ذلك أن السالب والموجب أو المذكر والمؤنث ، كما هو عامل تطور ، فإنه يشكل عامل توازن في الوقت نفسه ، وهذا ما نلاحظه في كل زاوية من زوايا الوجود الكوني الذي نعيشه .

ومن هذا كله نصل إلى أن قوى المادة الستّ هذه ، وأشكالها الصفاتية المتطورة والظاهرة في جبلة النبات والحيوان والإنسان هي التي تشكل الأساس والأرضية والجذور في موضوع الأخلاق برمّته . وأن جميع علوم الأخلاق إنما تدور حولها جميعها . لأن هذه القوى شكلّت هذه الجذور التي رافقت المادة في تطورها حتى ظهرت في جبلّة الإنسان بصورة أخاذة ومحيّرة . ذلك أن المادة كانت كلما

ازدادت تطوراً ، ازدادت هذه القوى وضوحاً وجلاء وتنوعاً وتلوناً ، حتى أخذت شكل صفات الإنسان الطبيعية المعروفة . وظل ينظم عمل هذه القوى في جميع اطوارها قوانين طبيعية محدّدة المعالم ، ساعدت ، وتساعد على عمل هذه القوى وتلك الصفات في مختلف أطوارها بشكل منظم ومثمر .

وإن من عجائب ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين أن ظهرت في جبلة الإنسان صفات نابعة من جذر واحد ، وصفات نابعة من أكثر من جذر من هذه القوى .

فصفة الشجاعة مثلاً تكوّنت من جذرين من القوى هما قوة الدفع وقوة الإظهار . لهذا كان بإمكان الإنسان إبداء شجاعته في محل الذّبّ عن الوطن والعرض والمال . كما كان بإمكانه التظاهر بالشجاعة في مواقع المنافسة بين الأشخاص .

كذلك الحسد ينبع من تراكب جذرين من القوى هما قوتا الجذب والإفناء . لذلك نلاحظ الحاسد ، إذا حسد الناس على ما آتاهم ربهم من التقوى ، انجذب نحو فعل الخيرات . وإذا حسد الناس على ما عندهم من أموال وما لهم من جاه تأكلّ صدره حسداً . لأن نوع الحسد الأول نابع من قوة الجذب ، ولأن نوع الحسد الثاني نابع من قوة الإفناء . وإن ظاهرتي الحسد هاتين ، وإن كانتا واحدة في ظاهرهما ، لكنهما مختلفتان في حقيقتهما . ذلك أن الأولى خير على صاحبها ، والثانية شرّ عليه .

وصفة المجادلة ذات جذرين هما قوتا الجذب والدفع معاً . فمن الناس من يجادل إظهاراً للحقيقة . وهذا الوجه من صفة المجادلة نابع من جذر قوة الجذب . ومن الناس من يجادل تهرّباً من الحقيقة ، وهذا الوجه من صفة المجادلة نابع من جذرقوة الدفع . ويمكن قياس جميع الصفات الطبيعية عند الإنسان على هذا النمط من التحليل والقياس .

وزبدة الكلام هي أن موضوع الأخلاق وعلومها منحصر في صفات الإنسان الطبيعية التي اتصف بها الإنسان بفعل كونه حلقة متطورة عن المادة وقواها . وإن جذور الأخلاق على هذه الصورة تبلغ في عمقها الذرة المادية وما فيها من قوى وما لها من خصائص . وهذا يعنى أموراً خمسة :

أولاً : إن موضوع الأخلاق هو موضوع يعود إلى صميم المادة . وليس هو بموضوع فلسفي ، كما صوره أكثر المفكرين .

ثانياً : إن موضوع الأخلاق ، أو موضوع هذه الصفات الطبيعية التي فطرت عليها جبلّة الإنسان هي ما اصطلح الإسلام على تسميته « بالفطرة البشرية » . فما الفطرة البشرية إلّا هذه الصفات الطبيعية التي أودع الخالق جذورها الذرة المادية الأولى ، والتي طوّرتها صفة ربوبية الخالق حتى بلغت مبلغ الفطرة البشرية هذه .

ثالثاً : ما الأخلاق إلّا اسم لهذه الصفات الطبيعية للإنسان ، أو اسم لفطرة الإنسان ذاتها . بمعنى أن الأخلاق ومفردها خُلُق وهي اسم التكوين الباطني لهذا الإنسان ـ فالخلق ـ إنّما وضع مقابل لفظ ـ خَلْق ـ الذي هو اسم لجسم الإنسان . فالخَلْق اسم هذا الشكل الإنساني المتطور عن المادة ذات الوزن النوعي . والخُلُق هو اسم للقوى الباطنية لهذا الشكل الإنساني ، والمتطور عن قوى المادة أيضاً .

رابعاً : لا يجوز القول إن الصفات الطبيعية للإنسان ، أو فطرته البشرية التي فطره الله تعالى عليها هي خير كلها أو شرّ كلها أو أنها مجموع خير وشرّ . بل ينبغي القول إن الفطرة البشرية ، أو هذه الصفات الطبيعية للإنسان إنما هي أرضية للفعالية والعمل والتطور ، ويرتبط عنصر الخير والشر بكيفية وأسلوب استعمال هذه الفطرة أو هذه الصفات الطبيعية لا أقل ولا أكثر . فإن أُحسن استخدامها كانت وسيلة خير . وإن أسيء استخدامها كانت وسيلة شرّ على الناس وعلى المستوى العملي عندهم وحسب . وهذا ما أشار

إليه قوله تعالى : [ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها] .

خامساً : ولمّا كانت صفات الإنسان الطبيعية هذه ، أو فطرته البشرية ، هي أساس تقدمه وتطوره ، لأن قوى المادة أساس تقدم العالم وتطوره ، كان الإنسان محتاجاً إلى هداية الخالق لهذه الفطرة من أجل استخدامها استخداماً هادفاً ومنتجاً وموّحداً بين الناس . ومن هنا يأتي موضوع الأخلاق الفاضلة التي سأتكلّم عنها فيما بعد .

وأقول أخيراً إن هذه الأمور الخمسة هي حصيلة نظرية جذور الأخلاق .

* * *

الفطرة البشّرية

إن من أهّم حصائل نظرية جذور الأخلاق هذه ، هو توضيحها ، وبشكل علمي رصين ، معالم مفهوم الفطرة البشرية . هذا الأمر الذي يساعدنا على وضع تعريف محدّد وسليم لهذه الفطرة . كما توضّح لنا معنى الآية الكريمة : [فأقم وجهك للدين حنيفاً * فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله * ذلك الدّين القيّم * ولكن أكثر الناس لا يعلمون] ـ الروم ـ .

فما هي هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والتي أنزل تعاليم الإسلام وفقاً لها ولقوانينها ؟ ما هذه الفطرة التي أعطت الدّين الإسلامي وتعاليمه صفة الدين القيّم ، إذ إن ذكر الفطرة وموافقة الإسلام لها ورد في الآية في معرض المدح ، بل إن إيراد [ذلك] وهو اسم إشارة للبعيد واستعمل هنا للتعظيم كما تقول ذلك الأسد تعظيماً للمشار إليه . فما هي هذه الفطرة البشرية التي نزلت تعاليم الإسلام موافقة لمسارها بحيث ترفعت عن النّعرة القومية التي جاءت بها اليهودية كدين . هذه التعاليم الإسلامية التي تنزهت عن النّعرة الإقليمية أيضاً لأنها نزلت لجميع الناس قاطبة . فكانت نقطة التقاء لهم في كل زمان ومكان . حتى قيل بحقّها أيضاً [لا تبديل لخلق الله] أي إن التعاليم الإسلامية عالمية ودائمية يستحيل نزول شريعة ناسخة لها بسبب توقف تطوّر الذرة المادية في حدود هذا الإنسان وشكله الأمر الذي يهب الدين الإسلامي صفة الديمومة وعدم حاجة العالم بعدها لدين جديد يعالج تطوّراً حادثاً .

يقول تعالى في هذه الآية إن نزول الإسلام موافقاً لهذه الفطرة البشرية أكسب مزايا وخصائص أبعد من الخيال . وهب الإسلام صفة الديمومة حتى نهاية هذا

العالم أولاً . ووهبه هيمنة ظاهرة من جميع الجوانب على بقية الأديان السماوية السالفة ثانياً . ووهب الإسلام عظمة لا تطولها في العظمة رسالة أخرى مهما كان مصدرها واتجاهها ثالثاً .

ويبقى السؤال قائماً : ما هو مفهوم الفطرة البشرية وتعريفها وبشكل محدّد وعلمي . وللجواب ، نعود إلى اللغة وما أعطت لفظ الفطرة من مفهوم ، ذلك لأن القرآن أُنزل بلسان عربي مبين .

فالفطرة في اللغة هي الجبلّة المهيّأة في الإنسان لقبول الدين (محيط المحيط) وهي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته (مفردات الراغب) .

والآن إذا عدنا إلى الاستقراء العلمي الذي وضحته نظرية جذور الأخلاق ، والتي بيّنت أن جبلة الإنسان هي الصفات الطبيعية التي تطورت عن قوى المادة ، وشكلت الأساس لجميع حركات الإنسان وسكناته .

نصل إلى التعريف التالي للفطرة البشرية : حين نقول إنها قوى الإنسان الباطنة ، أو صفاته الطبيعية التي فطره الله عليها ، والتي تشكل أرضية أعماله .

فإذا تساءلنا عن السّمات الرئيسية لهذه الفطرة البشرية ، ومعالمها . نلاحظ أنها تتسم بسماتٍ عشرٍ رئيسية هي :

١ ـ تتسم الفطرة البشرية بأنها عبارة عن طاقات وينابيع قوى . كقوة الشجاعة وقوة الغضب وقوة المحبة وسواها من القوى .

٢ ـ وتتسم قوى الفطرة البشرية هذه بالتوازن القائم بين أعدادها ، إذ نلاحظ أن إزاء كل قوة توجد قوة مضادة لها . فالشجاعة يقابلها الخوف والجبن، والكرم يقابله قوة البخل . والمحبة يقابلها الكره والعداوة . وقس على هذا جميع قوى الفطرة البشرية .

٣ ـ والفطرة البشرية تتّسم بأنّها أرضية للأعمال ليس أقل ولا أكثر . لهذا لا يمكن إدخالها في مفاهيم الخير والشرّ . فلا يصّح القول إن الفطرة البشرية هي

خير كلّها . أو شرّ كلها . أو إنها مزيج من الخير والشرّ . بل يقال ـ أنها ـ مجرد قوى وصفات ، كالخزائن والينابيع ، يمكن استعمالها بمنحى الخير فتصبح خيراً ، ويمكن استعمالها بمنحى الشرّ فتصبح شراً . وإن التوازن القائم في الفطرة البشرية وبين قواها ، لا يسمح لنا أن نقول بأن الفطرة تميل بالإنسان نحو الخير ، أو نقول بإنها تميل بالإنسان نحو الشرّ . بل هي جبلة وطاقات أودعها الخالق ، بطريق تطوير قوى المادة ، جبلة الإنسان ، لتكون له عوناً وسنداً لاختيار الطريق الذي يشاء بفكره وإرادته ، دون أي إكراه طبيعي . وهذا ما عبّر عنه قوله تعالى : [إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً] أي أعطينا الإنسان هذه الفطرة وهديناه إلى استعمالها استعمالاً صحيحاً وهادفاً ، تاركين له حرّية التصرّف : فإمّا أن يتخذ نهج الشكر في حياته . أو يتخذ نهج الكفر فيجانب العمل بما تقتضيه هدايتنا إياه

٤ ـ والفطرة البشرية تتسم بأن رقي الإنسان الروحي ، لا يحصل إلّا استناداً لطاقاتها وصفاتها التي انطوت عليها . فهي أرضية ووسيلة هذا الرقي .

٥ ـ وهذه الفطرة البشرية ، يولد كل طفل من أطفال بني نوع الإنسان على قواها وطاقاتها دون أي تمييز بينهم في اللون أو العرق أو الزمان والمكان . وإلى هذا أشار قول رسول الله ﷺ : (ما من مولود إلّا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يُنصرّانه أو يمجّسانه) ـ بخاري ومسلم ـ .

٦ ـ وتتسم الفطرة بأن طاقاتها تعمل وفقاً لقوانين طبيعيّة محدّده . فالإهانة مدعاة الغضب . والحمية مدعاة التضحية والإقدام . والمُغريات مدعاة لإثارة الشهوات . . . . .

٧ ـ وتتسم الفطرة بأن لكل قوة من قواها .. آثارها في النفس البشرية سلباً وإيجاباً . ولا توجد فيها قوة إيجابيّة محضة ، ولا قوة سلبية محضة . ذلك أن كل قوة لها وجهان وجه سلبي ووجه إيجابي . ولا يظهر غلبة أحد الوجهين إلا عند الأستعمال .

٨ ـ وتتسم بأن لكل قوة من قواها ، علامات ظهور وحركة . تبدو هذه العلامات في مُحيّا الإنسان وفي أجهزته المختلفة . فمن يغضب تلمع عيناه وتتوتر أعصابه ، وتبدو عليه علائم الهياج ، ومن يحزن ترتخي أعضاء جسمه ، ويبين الأسى في وجهه ، وتذهب البسمة من على شفتيه وهكذا .

٩ ـ وتتّسم الفطرة البشرية بالطهارة والبراءة حيثما كانت ومن أي عرق أو لون كان تولدّها . لكن أفكار الوالدين وتوجيهاتهم تولدّ عندها ميلاناً وتحوّلاً في الطفولة ، باتجاه من الاتجاهات .

١٠ ـ والفطرة البشرية تتّسم بأنها صوت داخلي خفيّ ، لذلك اصطلح لها تسميةُ ـ صوت الضمير ـ ذلك أن لفظ الضمير يقابل لفظ الظاهر ويضاده معنى . من هذا كان معنى الضمير هذا الشيء الخفيّ . بمعنى الحسّ الداخلي الذي ينبهنا إلى الحلال والحرام .

هذه هي سمات الفطرة البشرية ومعالمها . ولقد نزلت تعاليم الإسلام في إطار هذه المعالم . وإن ما يؤكد لنا هذا الفهم ، هو أن القرآن الكريم ومن خلال تجزئته لتعاليم الأديان السابقة ، وحين بيان نواحي الضعف في تعاليم هذه الأديان ، كما وصلت إلينا في عصر النزول . نلاحظ أن القرآن يقول خلال ذلك عن المسيحية مثلاً : [ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله * فما رعوها حق رعايتها * فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم * وكثير منهم فاسقون] ـ الحديد ـ فهو ينتقد نظام الرهبنة عند المسيحيين الذي يشترط على الراهب أو الراهبة وقف نفسه على ممارسة شعائر العبادة لديه والإعراض عن الزواج البتّة . يبين تعالى أن نظام الرهبة هذا ليس هو من أصل تعاليم المسيحية من جهة ، وأنّه نظام يُنافي والفطرة البشرية من جهة أخرى . ذلك أن التبتّل الدائم ، وعلى هذه الصورة ، لم يفرضه الله تعالى على الإنسان قطّ . وكيف يفرض مثل هذا النظام الذي إذا عمل الناس عليه جميعهم ، توقف نسل بني الإنسان ، فكانت خاتمة الحياة الدنيا منذ زمن بعيد ؟ فالله تعالى حينما أودع الإنسان قوة الشهوة . هذه القوة التي أودعت

الذرة المادية منذ الإبتداء ، والتي كانت أحد عوامل تطورها . وتطور الإنسان واستمرارية حياته . فكيف يُعقل أن يودع الله الفطرة هذه القوة . ليحقق بواسطتها هذا الهدف البعيد . ثم يأتي من جهة أخرى ، يناقض أهدافه نفسه ، فيأمر بنظام الرهبنة المنافية البتّة لقوة الشهوة والأهداف المترتبة على وجودها ؟ إن مثل هذا النهج في الحياة ، لا يتصور فرضه أو اتخاذه من قبل أيّ مشّرع ينظم حياة البشر ، فكيف يمكن تصوّر صدوره عن رب العالمين ؟ إن هذا وجه من وجوه التلازم القائم ما بين التعاليم الإسلامية ، ومابين الفطرة البشرية على الوجه الذي أسلفت بيانه .

والإسلام شدّد على حرية الفرد ، تاركاً له الخيرة في التزام طريق الإيمان والعمل بموجب تعاليمه ، أو الالتزام بطريق الكفر والعمل على هواه . وهذا التعليم يراعي الفطرة البشرية بشكل واضح كل الوضوح . بل إن هذا التعليم ، إضافة لمفهوم الفطرة المتقدم الذكر ، يفسّر لنا ، موضوع التسيير والتخير الذي تاه في خوض خضمّه كثير من العلماء أيضاً . فكلمة عمر بن الخطاب المشهورة لا يزال يتردّد صداها في آذان الناس حتى اليوم لقوة بيانها وحسمها للأمور وهي قوله (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟) .

إن الإنسان ، بالنظر للفطرة البشرية ، يعيش حياته بين دائرتي التّخيير والتّسيرفي آن واحد ، فهو يتغذى بما تنتبه الأرض من غذاء . وبما تنزله السماء من ماء . ويستنشق هواء هذا الفضاء ، ويستنير ويتأثر بهذه الشمس وما تحمله له من أسباب الحياة . وهو يأتي إلى هذا العالم عن غير سابق رضا ومشورة . ويغادر هذا العالم مكرها ، رغم كل ما يبذله من وسائل للإبقاء على حياة نفسه ، من هذا ندرك أن الإنسان يعيش ضمن دائرة هذه الأشياء مجتمعه حياة تسيير واضحة المعالم فهو مقيّد بالغذاء والماء والهواء والحياة والموت على الوجه الذي بيّنته . فلا يستطيع تجاه ذلك التمرد على هذا النظام كله لأنه جزء منه وتركيبته تركيبته . فلانسان يعيش حياة التسيير هذه وفي هذا الإطار بصورة تلقائية وآلية . وفي الوقت نفسه

يعيش الإنسان أيضاً ، في نطاق تصرفاته وأعماله كلها ، حياة تخيير مُطلق ، إنما ضمن الإطار الأول وفي حدوده . إن الإنسان هو حرّ على صعيد التغذي أن يتغذي بما يشاء مّما تنبته الأرض . وهو حرّ أن يشرب الماء على أي وضع طبيعياً أو ممزوجاً أو ملوناً . وقد أوتي الإنسان جسداً هو حرٌ في التصرّف به فطرياً ، فإن شاء وفرّ له أسباب الصحة والقوة ، ضمن الإمكانيات المتوفرة . أو شاء ، انتحر وعطلّ جسده نهائياً . ولقد أوتي الإنسان عقلاً وإرادة وإحساساً وحواس ، هو حرٌ التصرّف بها جميعها ، وعلى الشكل الذي يرضاه هو لنفسه . وعلى هذه الصورة ، وعلى صعيد العمل بالذات تتراءى لنا معالم حياة التخيير الفطرية التي أودعها الله الإنسان في فطرته . وإن من تتبّع بعد هذا جميع تعاليم القرآن بمنظار هذين الإطارين المذكورين ، لا يجد أي تضاد بينها البتة . وسيجد مجرّد توجيه ووصف للإرشادات المتخذّة في استعمال قوى هذه الفطرة البشرية استعمالاً حسناً مثمراً وبنّاء ومساعداً على تطور الإنسان روحياً لا أكثر . توجيه هذه الإرشادات كلها دونما أي إكراه ودون اللّجوء لأيّ وسيلة من وسائل العُنف ، اللّهم إلا سلاح الحجة والبرهان ، والإقناع بالحسنى .

بل إن الدين الإسلامي ترك للإنسان حرّية الإرتداد عن الدين حيث قال : [من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر] وقال [يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه * أذلة على المؤمنين * أعزّة على الكافرين * يجاهدون في سبيل الله * ولا يخافون لومة لائم * ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء] ـ المائدة ـ وهناك آيات كثيرة مثلها . ولا تنص آية قرآنية واحدة على الأكراه في الدين وحقّ قتل المرتد عن دينه . فالذي يؤمن بإرادته ، حقه الطبيعي أن يرتد ويكفر إذا تبينّ له ضلال ما اعتقده وآمن به . وكل ما هنالك أنّه يعتبر ناكثاً لعهده مع ربه على الوجه الذي بايعه عليه .

وخلاصة القول ، هو أن الفطرة البشرية أشبه بعضو داخلي عند الإنسان ، لا يقلّ شأنا عن بقية أعضائه . وكما أن لكل عضو جماله ومقاييس حُسنه ، فإن

للفطرة البشرية جمالها ومقاييس حُسنها . ويتجلّى ذلك في سماتها العشرة الرئيسية التي أتيت على إيرادها . وكما أننا لا نصف أي عضو من أعضاء الإنسان بالخير أو الشرّ . كذلك حال الفطرة البشرية لا يمكن وصفها بالخير أو الشرّ . فهي حُسنٌ بمقاييس الجمال التي تتمتع بها . إلى جانب كونها أرضية رقي الإنسان وتطوره ، أو ترديّه ، فيما لو أسيء استعمال قواها . كما يحدث من إساءة استعمال أي عضو من أعضاء الجسم البشري .

إنّ صفة الزهد على سبيل المثال ، إحدى قوى هذه الفطرة البشرية . والزهد كصفة لا تُذم ولا تمتدح من حيث ذاتها ، بل تُذم أو تمتدح بميزان العقل على المستوى العملي . كذلك صفة الصبر ، وهي قوة من قوى الفطرة البشرية فلا يُذم الصبر ولا يُمتدح من حيث ذاته ، بل يُذم ويمتدح بميزان العقل وعلى مستوى الأعمال . من هذا المنطلق قال تعالى في كتابه العزيز : [لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم] ـ التين ـ بمعنى أن كل شيء جاء في الإنسان متطوراً [في أحسن تقويم] أي على أفضل ما يُتصور وينبغي ظاهراً وباطناً ، بحيث لا يلاحظ في خلق الإنسان أي نقص أو عوج . وأضاف قوله : [ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير ممنون] بمعنى إن الإنسان ما ترك بعد خلقه على أحسن تقويم ، بل بعث الله النبين بهدايات السمّاء ، تهديه سواء السبيل لاستعمال ما آتاه الله من قوى وأعضاء وحواس . يقول تعالى هاكم تاريخ هذا الإنسان بصورة عامة ، فإنه دليل قاطع وشاهد حيّ على أنا لم نكره أحداً على قبول هذه الهدايات . لكنه يتراءى لكل عين بصيرة ، عبر هذا التاريخ الطويل من حياة الدعوات السماويةأن الناس الذين كفروا وكذبوا بها،انتهى مصيرهم إلى أسفل سافلين خاسرين دنياهم وآخرتهم وما آتاهم الله من نعم . إلاّ الذين آمنوا بهذه الهدايات السماوية ، وعملوا على أحكامها ، فقد نالوا أجر إيمانهم وعملهم أجراً غير ممنون أي غير منقطع . فما زالت ذرياتهم تحصد ثمار إيمانهم وثمار أعمالهم تلك . ويضيف قائلاً : [فما يكذبك بعدُ بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين] ؟ ويريد سبحانه أنه وهل هنالك أقوى من منطق التاريخ هذا في مجال الكفر والإيمان ونتائج

الأعمال ؟ فهذا أعظم دليل على أن هذا الدين الذي بُعثت به لابد أن يؤتي المؤمنين به نفس الثمار ، ولابد أن يصل مكذبوه إلى نفس ما وصل إليه من سبقهم من المكذبين . ألا إن التساؤل في هذه الآية قائم على يقين كامل وواضح المعالم ، بالنتائج المتوخاة من رسالة الإسلام . وإنّا على ذلك لمن الشاهدين .

وصفة [أحسن تقويم] الذي تكلمت عنه هذه الآية الكريمة ، وردت في آيات أخرى بألفاظ أخرى ، حيث قال تعالى : [ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها] وإن قوله [وما سوّاها] هو ما جاء في [أحسن تقويم] ولكن بألفاظ أخرى . ذلك أن التسوية هي إيجاد استعداد وصلاح في النفس . ذلك أن الفطرة البشرية أوتيت قوى وصفات متوازنة ، وعلى صورة أضحت صالحة للاستعمال بإتجاه الخير أو بإتجاه الشرّ في آن واحد . فهي متوازنة لا تميل بصاحبها نحو الخير ، ولا تميل به نحو الشرّ . وهذا التوازن هو أساس حرية الإنسان في التصرّف بداعي الفطرة .

والتسوية في الأرض معناها جعلها صالحة للزراعة ، سواء أزرعتها عنباً ورمانا ، أو زرعتها شوكاً وزنجيراً . فالتسوية لمجرد الزراعة بغض النظر عمّا يزرع في الأرض المسوّاة . وهذا تنبيه إلى أن نفس الإنسان وفطرته ، جاءت على أحسن تقويم ، لكونها مسوّاة بصورة أُلهمت معها فجورها وتقواها . أي أودع فيها من القوى ما يساعدها على انتهاج سبل الفجور إن شاء صاحبها ، وما يساعدها على انتهاج سبل التقوى إن شاء صاحبها أيضاً . ويضيف : [قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها] وهذا إشارة وتوجيه أيضاً إلى منطق التاريخ الحاصل في هذا المجال . فتبارك الله أحسن الخالقين .

من هذا كله يتضح ، وإستناداً لنظرية جذور الأخلاق ، يتضح بجلاء ، ولكل عين بصيرة ، كيف أضحى موضوع الفطرة البشرية ، قائماً على درب الطريق العلمي في البحث والاستقراء ، جنباً إلى جنب ، مع بقيّة العلوم .

***

صورة الفطرة مُهتزّة على مستوى الأعمال

لا جرم أن الفطرة البشرية ، بمفهومها الذي شرحته وحدّدته ، وبسماتها العامة الرئيسية التي عدّدتها ، هي فطرة خيّرة معطاء ، بل على أعلى مستويات الحسن والجمال المعنوية . وإن إنساناً يحمل مثل هذه الفطرة يفترض المنطق أن يلاحظ في سلوكه تمايزاً عظيماً عما دونه من الكائنات الأقل تطوراً منه كالحيوانات والنباتات والجمادات .

لكن الملاحظ في عصرنا ، بل وفي جميع عصور التاريخ البشري ، هو أن صورة الفطرة هذه تتراءى مهتزّة على مستوى الأعمال .

إذ تلاحظ ظاهرة الإفراط والتفريط في كل خطوة يخطوها معظم الناس . ظاهرة الإفراط والتفريط هذه على مستوى الغذاء . والعلاقات الجنسية ، والحقوق والواجبات ، وعلى المستوى السياسي والعلاقات الخارجية . بل على المستوى العلمي ، إذ نجد هذا الإنسان يستخدم الذرة في غير المجال السلمي ورفاهية الإنسان ، وبصورة قد تقضي على حضارة الإنسان نفسه وتراثه . هذا الإفراط والتفريط ، في جميع مجالات الحياة العملية ، مّما زرع الفوضى والفساد في الأرض ، وعمّق العداوات بين الأمم والشعوب متبدّياً في ظواهر الطبقية والعنصرية والطائفية والاستغلال حتى أمسى الإنسان نفسه عرضه للقلق والفزع المُستمرين ، والشكوى والأنين الدائمين .

وإن ماضي البشرية حافل بلاقتتال والحروب وسفك الدماء . فكم من مدينة هُدمت وأُحرقت ، وكم من قبيلة وعشيرة قد أبيدت . وقلما خلا بيت من شقاق بين الأشقة ، ونزاع بين الزوجين ، وخصومات بين الجيران .

فإذا قارّنا ما حدث ويحدث على مستوى الأعمال . مع ما تحمله النفس البشرية من فطرة معطاء وجميلة السمات . إذا قارن المرء بين هذين الأمرين . تتراءى له صورة الفطرة البشرية مُهتزّة المعالم ، لا يُرى منها إلاّ وجود هزيل العطاء ضعيف الأثر .

فلماذا اهتزت صورة الفطرة البشرية على مستوى الأعمال ؟ ولماذا بدت ظاهرة الإفراط والتفريط في ساحة الأفعال ؟ هذا سؤال محيّر في ظاهره . لكني على يقين أنكم إذا تابعتم ما سأبينه لكم ، وهو حصيلة دراستي العلمية لهذه النقطة بالذات ، فإنه سيزول عجبكم ، وقد تتفقون معي إضافة لذلك ، وتسلّموا بما توصلت إليه تسليماً .

أوليس عالم الحيوان هو درجة أقل تطوراً من عالم الإنسان ؟ أفلا نرى الحيوانات تعيش جماعات جماعات ، وكأنها أمم أمثالنا ؟ لاحظوا الفروق ما بين رضيع حيوان ثدي ، ورضيع إنسان . ولاحظوا الفروق بين تصرّفات كلٍّ مِنْهما على مدى نموه . لماذا لا يبكي ولا يلهث الرضيعان إلاّ طلباً لثديي أمّهما ؟ ولماذا يبدأن بعد ذلك بالتمايز في السلوك ؟ فيظل رضيع الحيوان لا يلبي في تصرفاته كلّما كبر ، إلا صوت فطرته ، أو ما سميناه غريزته . بينما يلاحظ رضيع الإنسان ، كلما كبر ، يأخذ يتأرجح في تصرفاته ، بين تلبية صوت فطرته حيناً ، وصوت عقله وإدراكه أحياناً أخرى . يفعل هذا بسبب هذا الفارق بينه وبين رضيع الحيوان في ملكة العقل والإدراك . إن المخلوق الذي ظلت ردود فعله وتصرفاته مرآة فطرته ، عُصِمَ من الوقوع في مرض الإفراط والتفريط عموماً . بينما المخلوق الذي أوتي العقل والإدراك والإرادة ، ابتعد عن صوت الفطرة ، مستسلماً لعقله المُجرّد ، وإدراكه المتفاوت شدة وضعفاً من إنسان لآخر ، وسقط في وهدة الإفراط والتفريط . أوليست هذه النتيجة هي غريبة في حدّ ذاتها ؟ إن المنطق يستدعي أن يكون العاقل أهدى من غير العاقل الذي هو الحيوان . على حين نلاحظ أن الواقع يُنافي هذا المنطق على المستوى العملي . فلماذا تأتت هذه النتيجة الغريبة ؟ ولماذا اهتز ميزان المنطق في هذا المجال ؟ .

إن سيّد الغابة يُلاحَظ أنه لا يفتّش عن فريسة إلاّ إذا جاع . وإن الطيور تُلاحَظ أنها لا تفرّح إلاّ في أشهر معلومة . وإن الطيور الجارحة لا تتغذى إلاّ باللّحوم . والحيوانات الأليفة لا تتغذّى إلاّ بالنباتات . وقلّما نجد حيواناً يتجاوز حدود حاجته عند تناوله لوجبات طعامه . حتى إننا نلاحظ أن الحمار الذي يضربون الأمثال بسذاجته ، نلاحظ أنه إذا أقدم على الشرّب ، فلا يشرب إلاّ على قدر حاجته . بينما نلاحظ عند الإنسان ظواهر النّهم في الطعام ، والشذوذ الجنسي . والحرص والبخل وغلبتهما ، وغلبة الأنانية والجشع وجمع المال والتطاول على حقوق الآخرين . ونلاحظ لديه التبذير وتناول المخدرات وما إليها . كل هذه الأمور تبدو من أكثر الناس . فأين هذا المخلوق الذي امتاز عن الحيوان بنعمة العقل وسلاح الإرادة ؟ لماذا نلاحظ هذا المخلوق وقد مال عن حالة الإتزان الفطري أو الغريزي ، إلى حالة النفس الأمارة بالسوّء ؟ أو إلى مرض وظاهرة الإفراط والتفريط ؟ فما هو انذي دفع الإنسان ، وهو الكائن العاقل ، ليستبدل بالعطاء تخريباً ، ويستبدل بالتقوى فجوراً ؟ فهل العقل نعمة للإنسان ، أم نقمة عليه كان بغنى عنها ؟ أم أن العقل المجرّد وحده لا يعمل ولا تكون له فعاليته إلا بمساعدة عامل آخر سواه . فإن كان الأمر كذلك ، فما هو هذا العامل المساعد الذي يعين العقل على أداء مهمته ؟ .

***

لا يُستثنى العقل من ظاهرة العامل المساعد أو الزوّجيّة

لاحظنا على مستوى الذّرة أن سرّ تحولاتها وتفاعلاتها زوجية قواها أي وجود السالب والموجب بينها . هذا الأمر الذي انتهى في الفطرة البشرية إلى ظهور القوى المتضادة فيها . كالشجاعة والجبن ، والجرأة والخوف ، والكرم والبخل ، والقساوة والرحمة والإقدام والإحجام وسواها من القوى والصفات في فطرة الإنسان .

والحق أن هذه الظاهرة لم تقتصر على فطرة الإنسان وحدها ، بل تبدّت في حواسه وأعضائه وملكاته أيضاً .

دونكم حاسة الرؤية على سبيل المثال . تلاحظون أن عين الإنسان هي عبارة عن آلة تصوير فوق الالكترونية ، إن صحّ هذا التعبير . تلتقط هذه العين الأشياء بسرعة مذهلة تعجز عنها أدق آلات التصوير وأعظمها . إن عين الإنسان هذه ، وهي تمثل حاسة الرؤية عنده ، تلتقط صُور كل شيء يكون في مقابلها ما دامت مفتوحة . وهي تكيّف نفسها ، عند التقاط الصور بصورة آلية مهما كان نوع الصورة . وبعدها أو قربها أو حجمها . إن عين الإنسان هذه التي هي على هذا المستوى من الأداء والنفاسة ، والقيمة ، تصبح عديمة الجدوى ، معطلّة الأداء ، إذا أزلنا عنصراً مساعداً لها على أداء وظيفتها ألا وهو الضوء . ذلك أن الإنسان لا يرى في الظلمة شيئاً . والضوء هو الذي يكشف الأشياء للعين . والعين بدون الضوء حاسّة لا قيمة لها البتّة . وندرك أن كل حاسّة لا بد لها من عامل مساعد خارجي عنها ، يمكّنها من أداء وظيفتها حق القيام .

ولنأخذ حاسة السّمع على سبيل المثال أيضاً . فالأذن هي آلة التقاط الأصوات وتفسيرها . فهي آلة فوق الالكترونية أيضاً ، إن صحّ التعبّير . ذلك أنها تلتقط الأصوات بسرعة مذهلة ، وبحساسية تعجز عن أدائها أدق الآلات السمعية وأعظمها . وأذن الإنسان هي أداة حاسة السمع عنده ، وهي عبارة عن جهاز مُعقد جدّاً ، تمرّ الأصوات خلال الأذن وضمن أنواع كثيرة من الأشكال المادية تشكل نفقاً . وفيها أغشية وعظام وسوائل فيها تتحول الأصوات أخيراً إلى إشارات عصبية ، تنقلها الأعصاب إلى مخ الإنسان ، ليتعرّف هذه الأصوات ويتبينّها . وإن أذن الإنسان وهي التي على هذا المستوى من القيمة والدّقة والنفاسة ، تصبح معطلة ، عديمة الجدوى ، لاقيمة لها ، إذا حذفنا الهواء كوسيط في الجوّ يحمل إليها ذبذبات الأصوات . ذلك أن الهواء هو عامل مساعد للأذن يساعدها على أداء وظيفتها . ولا تُجدي الأذن صاحبها بدون الهواء .

ويمكن قياس جميع حواس الإنسان وملكاته على هاتين الحاستّين . ذلك أن ظاهرة الزوجية ، ظاهرة السالب والموجب ، ظاهرة الذكر والأنثى ، هي إحدى الظواهر المادية على مختلف درجات تطورها .

وإن ملكة العقل التي قلنا إن الإنسان أمتاز بها عن الحيوان ، أن ملكة العقل هذه ، وتبعاً لظواهر المادة المذكورة ، لا يمكن استثناؤها من بين ملكات الإنسان وحواسه وأعضائه ، من ضرورة توفرّ عامل مساعد لها ، يكون الوسيط للعقل في أداء مهمته ولتحقيق الغرض من وجوده .

وبات بديهياً أن العقل المجرد لا يصل بالإنسان إلى مرتبة اليقين في أحكامه . ذلك أن ذروة ما يحكُم به العقل هو لزوم وجود الشيء . في الوقت الذي يستحيل عليه أن يحكم بأن هذا الشيء موجود فعلاً . وشتان ما بين لزوم الوجود ، وما بين الوجود كحقيقة واقعة . وأن هذا يعني ، وبألفاظ أخرى ، أن العقل المجرد يستحيل عليه أن يصل بصاحبه إلى مرحلة اليقين الكامل . بل كل ما يفعله هو إيصاله إلى مرحلة يصحّ معها ، لكنه لا يصل به إلى مرحلة يجب وجوده على وجه

يقيني . ونلاحظ أن العقل لا يقدر على ردم هذه الثغرة في أحكامه بدون وسيط خارجي يساعده على الباس محاكماته لباس المشاهدة واليقين .

إن هذا الأمر أضحى من بديهات ومُسلّمات الإنسان ، ولا أجد نفسي مضطراً للتبسّط فيه .

ولا نلاحظ اليقين في أحكام العقل إلا بعد أن انتهج الإنسان الطريقة العلمية في حياته ، طريقة الملاحظة والتجربة والاستنتاج . فأخذ يصدر العقل في المجال التجريبي أحكاماً سديدة يقينّية . ولم نلاحظ اليقين في أحكام العقل إلاّ بعد أن انتهج الإنسان طريقة تحليل الآثار وقراءتها لإصدار أحكام يقينية عن تاريخ الإنسان والحيوان وسواهما من الكائنات . حيث أضحى كلّ منا ، في عصرنا ، يتكلم عن المادة والمواد بشكل جازم ويقيني ، ويتكلم عن الأمم السابقة وحضاراتها بشكل حازم ويقيني أيضاً .

وبمساعدة نهج الطريقة العلمية في البحث والاستقراء ، وطريق التحليل لمخلفات الأمم وقراءة كتاباتها ، لاح في الأفق ، نور جوهر العقل ساطعاً متلألئاً ، مميّزاً الإنسان عن بقية المخلوقات بل وأعطاه حق السيادة في البر والبحر والجوّ على سائر ما دونه من هذه الكائنات .

وهذا يعني ، بدليل الوقائع الملموسة ، أن الإنسان تاه عندما نسي أن العقل هو كسواه من حواس الإنسان وملكاته وأعضائه ، لا يستثنى من ظاهرة الزوّجية وضرورة وجود العوامل المساعدة ، لأداء مهمته .

وإن المتفحص المدقق سيصل معي يقيناً إلى أن العقل ، لسعة المهمة المخلوق لأدائها ، أوتي أكثر من عامل مساعد:قد أوتي ثلاثة عوامل مساعدة حتى يتمكن من أداء وظيفته على مختلف المستويات .

أولاً : إن العامل المساعد الأول الذي أوتيه العقل ، وعلى المستوى المادي المحسوس ، وضمن نطاق القوانين الطبيعية ، هو الملاحظة والتجربة

والاستنتاج ، هذا ما نسميه بالطريقة العلمية في البحث والاستقراء ومعرفة كنه الأشياء وتراكيبها بشكل يقيني .

وإن الملاحظ ، عبر تاريخ الإنسان ، أنّ هذا العامل المساعد كان أساس تقدم الإنسان وتأسيسه للحضارات الإنسانية المعروفة . وإن انكباب الناس في عصرنا ، على التوسع في استخدام هذا العامل المساعد ، حقق للإنسانية نتاجاً رائعاً ، وتقدماً مادياً أخّاذاً . وخلب ألباب البشرية ، حتى كاد هذا اللإنسان يظن أن المادة هي كل شيء في هذا الوجود .

لاشك أن هذا الرفيق المساعد لعقل الإنسان ، أو هذه الطريقة العلمية التي هي سلاحه في اكتناه العالم المادي ، من محسوسات ومرئيات ومسموعات ومشمومات وموزونات . إن هذا العامل المساعد هو الذي مكنّ عقل الإنسان من نَقْل الإنسان نفسه وعلى مستوى المادة ، ليعطي أحكاماً متجاوزة حدّ الظنون ، وبالغة مرتبة اليقين . والإنسان باستعماله لهذا العامل ذاته جعل تقدّم الإنسانية على طريق واضح وسليم ومثمر .

فبذريعة الملاحظة والتجربة والاستنتاج ، تمكن عقل الإنسان من اكتشاف التركيب الذري ، وما يلحقه من علوم وقوانين واختراعات إذ تمكن العقل البشري بهذه الوسيلة رؤية المادة كورقة مكشوفة ومقروءه . وهذا ما أفاده على جميع مستويات الحواس : سمعيةً كانت أو بصريةً أو شميّةً أو حسيّةً أو ماديةً ذات وزن معلوم .

ولا تزال البشرية على اعتاب هذا الباب الذي فتح للإنسان على مصراعيه . إذا إن الحقائق المكتشفة حتى الآن على الصعيد المادي وبفضل هذا العامل المساعد ، عامل الطريقة العلمية في البحث والاستنباط والمعرفة ، إن هذه الحقائق المكتشفة حتى الآن بهذه الطريقة لا تشكل شيئاً يذكر أمام مجاهيل المادة التي تنتظر من الإنسان استعمال عقله وبهذا المنهج لتجود عليه بالعطاء وتبسطه له . وأنه بالرغم من كل المكتشفات التي ظهرت في عصرنا ، فليس بعيد أن تأتي اكتشافات

على أيدي أجيالنا القادمة تجعلنا في نظرهم بدائيين وبدائيين جدّاً وقد قيل عش رجباً تر عجباً .

والمهم في الأمر هو أن العقل البشري لا يستثنى من ظاهرة الزوجية وقانونها ، ومن حاجته إلى عامل مساعد ، تخضع لها جميع حواس الإنسان وأعضاؤه وملكاته ، مساعدة له على تأدية وظيفته على وجه مفيد ويقيني . من هذا نُدْرك مبلغ الخطر الذي تعرّض له سلوك الإنسان في الماضي والحاضر ، والآثار السيئة التي تأتت من جرَّاء ذلك ، وهذا ما أدّى إلى اهتزاز صورة الفطرة البشرية على المستوى العملي في حقل المواد واستغلالاتها حتى الآن .

ثانياً : وأن العامل المساعد الثاني الذي أوتيه العقل . هو التاريخ بمنطقه الذي يكون للعقل عوناً على استخلاص العبر والنتائج على مستوى العلاقات العامة ومنحى التاريخ . وأن مادّة هذا العامل المساعد تنحصر في هذه الرسائل والصحُف والمخطوطات على الأحجار والطين والجلود وورق البردي وسواه . وهذه الآثار العمرانية والحضارية من مباني وأدوات وآلات ومستحاثات وسواها . هذه كلها هي التي تحدثنا عن الأمم الخالية وحضارتها وتاريخها وعلاقاتها بعضها ببعض ، ويستخلص من هذا في النهاية مسار التاريخ ومنطقه وأحواله بشكل جازم ويقيني .

والملاحظ في عصرنا تفشي ظاهرة التنقيب عن الآثار . هذه الظاهرة التي تمثل في حقيقتها هذا العامل الثاني المساعد للعقل على الجزم في معرفة التاريخ . والحق أن المعلومات التاريخية التي قامت على أساس هذه الأشياء المكتشفة بواسطة الحفائر ، والتي أضحت معلومات ذات طابع عالمي يُدرّس في كل مكان كحقائق ثابتة . إن هذه المعلومات تشهد على أن العقل وحده هو عاجز عن معرفة التاريخ الحقيقي ومساره دون مساعدة هذا العامل الثاني الذي أتحدث عنه .

فمن عرّفنا حضارة الأغريق والفراعنة والكلدانيين وسواها من حضارات العالم البائدة ؟ وكيف تعرّفنا إلى لغات تلك الأمم ، وأسلوب معاشهم ،

وعلاقاتهم بعضهم ببعض ؟ والجواب سهل جداً . فقد عرفناهم بواسطة آثارهم وما تركوه من رسائل ومخطوطات وشواهد عمرانية . هذه التي تكشفت عنها الحفائر في أماكن تجمعاتهم التي كانوا يعيشون فيها .

وإننا عندما نستخلص من سيرهم العِبَر ، وما نسميه منطق التاريخ في توجيهاتنا ووعظنا وتقويم سلوكنا . لا نفعل هذا من منطلق يقيني، إلا بفعل هذا العامل المساعد الذي أعان عقولنا على استخلاص هذا كله استخلاصاً صحيحاً ويقينيّاً .

وإنّه لا يُنكر وُجودَ هذا العامل المساعد على المستوى التاريخي ، بالنسبة للعقل ، إلا أحمق ذو هوس . ذلك أن عصرنا هو دليل حيّ على عظمة هذا العامل ووجوده وفعاليته . وإني لأجد في قوله تعالى في سورة التكوير [وإذا القبور بُعثرت] إشارة واضحة إلى هذا العامل ، وإلى الحفائر الجارية في عصرنا على قدم وساق . وحيث أن سورة التكوير هذه ، إن تدبرناها ، نجدها تحفل بالنبوءات عن معالم عصرنا الذي نعيش فيه ، وبالتطورات الحادثة خلاله . لست بصدد تبيان هذا ، في هذا المقام .

والمهم هنا أن ندرك أن ما يجري في عصرنا هذا من حفائر وتنقيب عن آثار الأمم البائدة ، إنما هو خطوة سليمة وسلوك طريق عامل مساعد ، يساعد عقولنا على اكتشاف التاريخ والأخبار ، بواسطة ما تكشف عنه هذه الحفائر . ويمهّد لعقولنا الحكم بهذا الإتجاه حُكماً يقينيّاً وحاسماً . وهذا ما يساعد مستقبلاً على التخفيف من اهتزاز صورة الفطرة البشرية على مستوى الأعمال . مع ما يستفيده الإنسان من سلوكه أسلوب الطريقة العلمية في حياته وأبحاثه ، في هذا المضمار .

ثالثاً : والعامل الثالث الذي سخّره الخالق معيناً للعقل في مجال ما وراء المحسوسات . تلك التي لا تُرى بالعين المجردة ، ولا تُسمع بالإذن المجردة ، ولا تلمس باليد المجردة ، هذا العامل الثالث الذي سخّره الخالق معيناً للعقل حيث لا تفيد الطريقة العلمية المعروفة ، وحيث لا يفيده

التاريخ ومنطقه . إن هذا العامل المساعد الثالث هو الوحي والإلهام بمختلف أقسامه .

إن عقل الإنسان ، عبر تطوره الطويل ، لم يصل بالإنسان إلى إدراك حقائق ما وراء المحسوسات إلاّ عن طريق الوحي السماوي الذي رافق فكر الإنسان منذ بلوغه المرحلة التي امتاز بها عن الحيوان .

ذلك أن وجود الخالق ، ووحدانيته ، والمقصد الأسمى لحياة الإنسان ، وعالم الآخرة ، والتعاليم الموّجهة للإنسان ليستعمل قواه الفطرية استعمالاً سليماً مثمراً وهادفاً ، ووسائل الاتّصال بالخالق نفسه . إن جميع هذه الحقائق والتعاليم لم يتوّصل إليها العقل المجرد من ذاته ، بل توصل إليها عن طريق الوحي السماوي .

وإنّ الوحي هو الذي وضع أسس تحضير الإنسان وتمدينه . ونقله من حياة الكهوف إلى حياة الاستقرار على شكل تعاوني وديموقراطي ومنظم في السهول وخارج الكهوف . ولا حاجة للتبسط في إثباته في هذا المقام . ويكفي القول إن آدم الذي ذكره القرآن الكريم كان أول نبي بُعث من بين سكان كهوف منطقتنا ، ونقل الناس بتوجيه الوحي السماوي من حياة الكهوف إلى حياة الاستقرار في السهول ، مؤسساً بذلك أول حضارة نموذجية قامت على أسس ديموقراطية وتعاونية ويرجع تاريخها إلى عهد موغل في القدم وإني سأتعرّض بالشرح للبرهنة على صحة هذا في كتابي الذي أعدّه حول خلق الإنسان وتطوره .

وكل مقارنة ما بين سلوك الذين لبّوا صوت الوحي السماوي ، وما بين سلوك الذين كذبوه ، ومن خلال القرون الماضية . إنّ كل مقارنة من هذا القبيل ستصل بالإنسان ليرى بين سلوك الفريقين فرقاً شاسعاً جدّاً ، ووادياً عريضاً وعميقاً جدّاً . فهو سيرى أن أتباع الوحي السماوي لم تبد فطرتهم على المستوى العملي مهتزّة ، على الشكل البشع الذي بدت عليه صورة فطرة المكذبين وعلى المستوى العملي .

وإذا كان الذين لبّوا صوت السماء ، فقد اجتمعوا على أصول واحدة فيما يتعلق بما وراء المحسوسات . بينما تفرق المكذبون واختلفوا في كل أمر . فكم فيلسوف ظهر ، وكم مفكر خلا ، وكم مذهب اجتماعي لمع . ولم يتفقوا جميعاً على أصول معلومة ، ولا أفكار محددة فيما يتعلق بما وراء المحسوسات . بل على العكس من ذلك رأيناهم يخبطون خبط عشواء في تيهٍ من صحراء موحشة ما عرفوا لها حدوداً .

ثم إنّ خط المؤمنين بوحي السماء امتاز على الدوام بالثقة واليقين بما تلقاه المؤمنون من أنباء وعلوم في مجال ما وراء المحسوسات ،على حين لم يتميز خط المكذبين إلاّ بغلبة الظن ، والاضطراب والقلق والارتياب فيما توصل إليه عقلهم المجرد ، دون مساعدة وحي السماء .

والذي يراجع تواريخ زمر المؤمنين يلاحظ أنهم ما كانوا يبادئون المكذبين بعنف أو إكراه أو بادرة اعتداء . على حين يلاحظ أن المكذبين كانوا على العكس من ذلك تماماً : دينهم اللجوء إلى العنف مع المؤمنين وإلى محاولات اضطهادهم بمختلف وسائل الإكراه والاعتداء .

والملاحظ أيضاً أن المؤمنين بوحي السماء كانوا رغم ضعفهم وقلة أعدادهم معقود لهم النصر أخيراً والفوز والنجاح . بعكس المكذبين الذين كانوا ينتهون إلى الهزيمة والخزي والعار .

وإن علينا أن ندرك ، انطلاقاً من هذا الواقع التاريخي ، أن من يهمل عامل الوحي السماوي كعامل مساعد للعقل في مجال ما وراء المحسوسات . أن من يهمل هذا العامل يستحيل عليه أن يصل به عقله المجرّد إلى علم يقيني ثابت في هذا المجال . وسيكون حاله كمن يهمل عامل الطريقة العلمية في عالم المحسوسات ، وكالذي يستهين بآثار الأمم الغابرة مهملاً إياها وغير متخذٍ إياها وسيلة مساعدة لعقله لإدراك أحوال الأمم وأخبارها وتاريخها .

ثم إنّ الوحي السماوي وضحّ لنا الهدف الأسمى لحياة الإنسان.وهل بإمكان الإنسان تقويم سلوكه إلاّ على ضوء هدف معلوم لحياته يساعده على استعمال قواه الفطرية بصورة لا تبدو معها معالمها مُهتزّة . فالجندي لا يقاتل دون أهداف معلومة . والعامل لا يبذل قصارى جهده دون ثمن يوازي جهده المبذول . بل إن الإنسان فهو لا يتحرك ، بصورة عامة ، خطوة واحدة إلاّ بدافع نيّة نواها في نفسه . وهل ثمّة مناص للذين لا يعرفون من دنياهم إلاّ عالمهم المحسوس إلاّ أن يكونوا ماديين ؟ إنّ أمثال هؤلاء الذين لم يدركوا معنى المثل السامية ، والأخلاق الفاضلة ، والضرورة الملّحة للتحلّي بها ، لابدّ أن تهتزّ صورة فطرتهم على المستوى العملي . ذلك لأنهم بحرمان أنفسهم من نعمة استغلال هذا العامل المساعد ، تظل عقولهم قاصرة عن أن تهديهم سواء السبيل .

وقد علمنا أن فطرة الإنسان هي صفاته الطبيعية ، أو قواه الفطرية التي انطوت عليها جبلّته . ولماذا نذهب بعيداً ، ولا ننطلق من واقع ملموس ؟ فلتكن هذه الصفات الطبيعية هي مدار جدلنا .

إن جبلة الإنسان انطوت على قوتي الشهوة والعفّة ، على سبيل المثال . وهاتان قوتان متضادتان ، ومتوازنتان أولاهما موجبة والأخرى سالبة . ولنتساءل : متى ينبغي قضاء الشهوة ومتى ينبغي الاستعفاف ؟ وهل ينبغي قضاء الشهوة بشكل منظم وعلى أسس معلومة ، أم ينبغي قضاؤها بشكل فوضوي لا تحدّه حدود ؟ وإذا استعففنا ، فهل نستعفف ضمن أطر ونظم معيّنة ؟ أم نَستعفف بشكل لا يعرف التقييد والتنظيم ؟ ولنتساءل أيضاً : هل وجدت قوة الشهوة هذه هادفة ، في حقيقتها . أم أنها كانت مجرد قوة تفريغ عضوية وبشكل عفوي ؟ فإن كانت قوة الشهوة في أصل وجودها هادفة ، فما هي حدود ومعالم الغاية التي أوجدها الخالق لممارستها ؟ فإن كانت قوة الشهوة غير هادفة في وجودها ، فكيف تأتىّ أن يتحقق بواسطتها بقاء الأنواع على هذه الصورة المعروفة ؟ .

وإنّي لأرى أنّه يستحيل على الأبحاث المادية المجردة ، أو الأخبار التاريخية أن تكفي لمساعدة العقل على الإجابة ، إجابات يقينية وموحدّة ، على جميع هذه التساؤلات . ذلك لأن شطراً كبيراً منها متعلق بعالم ما وراء المحسوسات ، وهو أمرٌ يستحيل معه الإجابة بالعقل المجرد إجابات شافية ويقينيّة دون مساعدة الوحي السماوي وإرشاداته . هذا ولا يصحّ للّذي خلق الذرة وأعطاها قواها ، وطورها تحت عناية ربوبيته ، وأوصلها إلى حالة الفطرة البشرية هذه وهو يعرف الغاية من وجودها إلاّ أن يكون الخالق ، ويستحيل أن يرشد إلى استعمالها استعمالاً صحيحاً ويقينياً إلاّ أن يكون هو الرّب الكريم .

إنّ العقل المجرد وحده ، ليس بإمكانه أن يعطينا أجوبة شافية عن هذه التساؤلات بواقع الماضي ودلالاته ، إنه لو كان بإمكانه أن يفعل ذلك على وجه صحيح ، لما كنّا رأينا اتجاهات مختلفة قد سادت العالم . أوَ نسينا تيّارت الإباحية ، والدعوات لألغاء نظام الأسرة ، ونظم الرهبنة ، ومختلف أشكال الانحلال على مستوى هذه القوى الفطرية واستعمالاتها ؟ فلماذا هذه الاختلافات في السلوكية ونهجها في مضمار قوى الشهوة والعفة ؟ .

والملاحظ أن لكل اتجاه من هذه الإتجاهات معطياته ، فلو كان العقل المجرد يكفي للتوجيه السليم ، وبدون مساعدة من الوحي ، في حقل هاتين القوتين ، لَمّا كان وجد كلّ هذا الاختلاف في سلوكية الناس . في الوقت الذي نلاحظ فيه أنه لم ينظم استعمال هاتين القوتين ، استعمالاً هادفاً ومثمراً إلاّ وحي السّماء نفسه ، الذي ساعد العقل المجرد في هذا المضمار . وقيسوا على ذلك بقية قوى الإنسان الفطرية واستعمالاتها .

ولنتذكرّ هنا أن جميع ما حمله وحي السماء من معتقدات وإرشادات ، إنما نزل بها وهو مزودّ بوسائل الدفاع عنها حُججاً دامغةً وبراهين ساطعة ، وما نزل بشيء قد فرضه على الإنسان كمسلّمات . لا بل يضع بيد العقل المجرد منطلقات ومفاهيم تسندها أدّلة قاطعة تساعده على الإدراك اليقيني ، وعلى مستوى أشبه بمستوى الحقائق الحسّية .

بل إن وحي السماء فتح سبل لقاء الخالق ومكالمته ومواصلته بحيث ولدّ بين الناس ملايين الناس ممَّن بلغوا هذه المقامات وحصلوا على ثمارها ، وكانوا شهوداً ذاتيين على صدق ما نزل به الوحي على مرّ العصور ، وفي كل زمان ومكان . وإني بنفسي شاهد حق على هذا الأمر .

ونخلص إلى القول أن اهتزاز صورة الفطرة البشرية على مستوى الأعمال يعود سببه إلى غفلة الناس عن الاستعانة بهذه العوامل المساعدة الثلاثة التي أوجدها الخالق لمساعدة العقل البشري المجرد على أداء مهمته في جميع المجالات أداء سليماً ويقينياً . ذلك أن ملكة العقل إنما هي احدى ملكات الإنسان وحواسه وأعضائه ، ولا تستثنى من لزوم وجود عامل مساعد يساعدها على تأدية وظيفتها . فالعين لا تبدو فعاليتها إلا بمعونة النور . والأذن لا تبدو فعاليتها إلا بمعونة الهواء.والعقل لا تبدو فعاليته إلا بمعونة هذه العوامل الثلاثة المذكورة آنفاً .

وكما تُصاب ملكات الإنسان وحواسه وأعضاؤه بأمراض مختلفة ، كذلك قد يصاب العقل المجرد بأمراض مختلفة أيضاً ـ من هنا جاء اختلاف عقول الناس ، وعلى شاكله ذلك الحواس كلها فهي تعمل بقوة أو ضعف على قدر سلامتها من الأمراض .

العقل إنما هو أداة إدراك . ولا يكون إدراكه سليماً ويقينياً في حقول المادة والتاريخ وما وراء المحسوسات ، أو ما يسمونه ما وراء الطبيعة خطأ ، لا يكون إلا بمساعدة هذه العوامل التي أسلفت ذكرها . شريطة أن يكون العقل سليماً من الأمراض .

بهذا الفهم يمكن أن تبدو صورة الفطرة البشرية ، غيرمهتزّةالمعالم علىالمستوى العملي . بل محافظة كذلك على عطائها وجمالها وبراءتها .

*** *** ***

الرّبوبية ووحي السّماء

ذكرت ، عند الكلام حول العامل المساعد الثالث للعقل : « إنّ عقل الإنسان ، وعبر تطوره الطويل ، لم يصل بالإنسان إلى إدراك ، حقائق ما وراء المحسوسات إلاّ عن طريق الوحي الإلهي الذي رافق فكر الإنسان ، منذ بلوغه المرحلة التي أمتاز بها عن الحيوان » .

إن قولي هذا لا يتفق ، بلا ريب ، مع النظريات السائدة في عصرنا ، وهو بحاجة إلى دليل . ورغم أن هذا البحث محتاج إلى كتاب مستقل ، فإني سأحاول تدليل على بطلان هذه النظريات ، وصحّة قولي ، بصورة مجملة قدر الإمكان . حتى لا أترك في فكر القارىء شرخاً ، حول هذا الموضوع ، دون أن أتداركه ولو بما يشبه الإسعاف وما يتصل به .

تتلّخص النظريات المعاصرة في الأمور التالية :

١ ـ إن فكرة وجود خالق ، تولدت عند الإنسان بصورة تدريجية ، وكانت دواعي نشوئها بيئيته وظرفية معيّنة . وإن عقيدة وجود خالق هي من ابتداع فكر الإنسان .

٢ ـ وفكرة الخالق هذه اتسمت أولاً بمظاهر الشرك المادي ، وتطورت حتى اتخذت صورة التوحيد المعروفة .

٣ ـ وأن عقيدة وجود الخالق كانت أداة استغلال على الدوام ، ولمصلحة أشخاص وفئات ليس إلاّ .

٤ ـ ولم تربط هذه النظريات ما بين هذه العقيدة، وبين نشوء الحضارات في العالم .

هذه هي معالم هذه النظريات التي يروجونها حول عقيدة وجود الخالق والوحي والأديان .

هذا ، وان النظرية التي أؤمن بها ، والتي هي بنت الواقع ، إنما تقوم على الأسس التالية :

١ ـ إن عقيدة وجود خالق ابتدأها الخالق نفسه وبواسطة وحيه إلى عباده .

٢ ـ واتسمت هذه العقيدة بالتوحيد منذ نشوئها .

٣ ـ ولقد كانت نزعات الشرك عند الإنسان متأخرة دوماً عن التوحيد في نشوئها .

٤ ـ وأن الوحي والشرائع المنزلة هي التي وضعت للإنسان أول لَبَنات حضاراته ، وتاريخه في كل مكان من هذا العالم .

٥ ـ لم تخل أمة من بعثة نذير في أول نشوئها .

٦ ـ ولم تظهر معالم الاستغلال الديني إلا في عصور الانحطاط في حياة كل أمة من أمم الأرض .

٧ ـ وأن نزول وحي السماء بالبينات والهدى ، ما كان إلّا مساعدة للعقل لتمكينه من إدراك ما وراء المحسوسات وبأسلوب التربية والتطوير وعلى قدر نضجه في كل زمان ومكان .

هذه هي معالم النظرية التي أقول بها وأومن بها ، والتي يسندها الواقع ويؤيدها كما يتبيّن ذلك بالدليل القاطع . وقبل الاسترسال في هذا أرى ضرورياً تقديم الملاحظات التالية للذين طالعوا هذه النظريات المعاصرة مساعدة لهم على تبيان نواحي الضعف فيها بسهولة ويُسر :

أولاً ـ إن عبادة الأفعى ، كما هو ملاحظ تاريخياً ، عند الإنسان أقدم وأوسع نطاقاً من عبادة هذا الإنسان للحيوانات المفترسة المعروفة . فلو صحّ أن الإنسان ألّه أول الأشياء التي أخافته ، كان يفترض فيه أن يؤله الحيوانات المفترسة بادىء ذي بدء . لأنها تهاجمه جهاراً ، والأفعى تهاجمه متخفيّة .

ثانياً ـ إن نظرية النشوء والإرتقاء التي يعتنقها أصحاب هذه النظريات ، هي في حدّ ذاتها دليل قائم على بطلان نظرياتهم . ذلك أن أسمى أنواع القرود لا تخشى الأفاعي . بل تتصدى لها بسهولة . فكيف يمكن أن نتصور بعد هذا أن الإنسان ، وهو الذي يمثل درجة تطورية عن هؤلاء ، وفي نظرهم ، يمكن أن يؤله هذه الأفعى ويسجد لها خوفاً منها ؟ فأين معالم التطوّر في هذا المجال ؟ وأن المنطق السليم يتصوّر ألّا يأبه الإنسان ، والحال هذه ، بالأفعى بصورة من الصور .

ثالثاً ـ لقد كانت رؤية الشمس والقمر والنجوم بمتناول الناس جميعهم في بدء حياة الإنسان . ولقد كانت الرهبة من هذه الأشياء أولى وأدعى لتأليهها منذ فجر تاريخ الإنسان . لكن الثابت هو أن عبادة الإنسان للحيوانات كان أقدم زمانياً عنده من عبادته للكواكب هذه . وهذا ما يزعزع أركان هذه النظريات ويوهنها .

وإني ذكرت سابقاً أن التاريخ المأخوذ بطريق آثار الأمم من كتابات ونقوش وأواني وبقايا عمرانية وهيكلية . يعتبر هذا التاريخ مساعداً للعقل ليدرك أحوال الأمم الخالية ، وليتمكّن من إصدار أحكام يقينية بهذا الخصوص . ولنلاحظ ، أن نظريات هؤلاء حول الخالق والوحي والدين ، لا تستند إلى هذا العامل التاريخي بالأسلوب العلمي القائم على الوثائق التاريخية . فما هذه النظريات إلا أوجه نظر استقرائية ظنيّة ، لافتقارها لوسائل الإثبات المذكورة .

هذا وأن الذي يتابع معي تواريخ الأمم ، من منطلقها اليقيني / لابد سيصل إلى نقيض ما نصت عليه هذه النظريات . فهو سيوقن بأن الوحي السماوي رافق نزوله فجر تاريخ الإنسان ، منذ بلوغ الإنسان مرحلة الوعي والإدراك حتى هذا التاريخ .

والمعلوم أن تاريخ الإنسان حضارياً لا يتجاوز عمره عشرة آلاف عام . إذ كان الإنسان قبل هذا التاريخ لا يفترق في معاشه عن بقية الحيوانات . ويعيش في

الكهوف . ولم تكن له حضارة أو أية حياة مدنية أو معتقدات خاصة وهو في حياة الكهوف . وأن كل ما تركه من آثار إنما هو عبارة عن أدوات صوانية وبعض النقوش على جدران الكهوف .

ولم يبدأ الإنسان حياة المدنية والحضارة إلّا بعد أن هجر حياة الكهوف ، واستقر في السهول والجبال خارج الكهوف . من هذا ندرك لماذا اعتبر المحققون أن تاريخ الإنسان لا يتجاوز عشرة آلاف عام هذه التي ابتدأت من تورايخ هجر الإنسان حياة الكهوف في كل بقعة من بقاع الأرض .

ومن الآثار التاريخية المعروفة حتى يومنا هذا ، وبخصوص شعوب الأرض جميعهم ، والغارقة في القدم إلى فجر تاريخ الإنسان ، نجد من الأدلة ما يدحض هذه النظريات ويكشف عن زيغها ، ويثبت أن عقيدة وجود خالق يتصف بالوحدانية ويكلم عباده ويهديهم السبيل ، إنما رافقت هذه العقيدة فجر تاريخ الإنسان في مختلف بقاع المعمورة .

والمعروف ، والمسلّم به تقريباً ، هو أن شعب المكسيك يعدّ من أقدم شعوب الأرض . والذي يلاحظ عند متابعة آثار هذا الشعب التي كشفت حتى الآن . أن المكسيكين اعتقدوا في فجر تاريخهم أن هنالك إلهاً واحداً ، كانوا يسمّونه (آوونا ويلونا) . ولقد وصفوه بأنه خالق كل شيء . ومحيط بكل شيء . وأنه أبو الآباء . وجاء عن تصوّرهم لخلق العالم وكيفية حصوله أن الإله (آلونا) المذكور تصوّر شيئاً في مخيلّته ، وفي الحالة من العدم الذي سبق الوجود . فتولّدت من تصوّره هذا قوّة ، وأخذت هذه القوة تنمو ، وتنمو ، حتى أخذت شكل هذا الفضاء الفسيح ، واستنار هذا الفضاء بنور الله . وحدثت بعد هذا تقلّصات في هذا أدت إلى ظهور كواكب السماء ونجومها وشمسها وقمرها وسوى ذلك .

ولو قارنّا تصور المكسيكين هذا ، والبالغ في القدم ، مع النظريات الطبيعية المعروفة حول نشوء العالم . للاحظنا تشابهاً غريباً في أكثر النقاط . وهذا أمر يدعو للتوقف طويلاً لدى الباحثين .

وهناك القبائل الإفريقية الأبعد عن المدنية والحضارة المعاصرة . نجد أن إحدى هذه القبائل والمسّماة قبيلة أرمتا *Armta* تعتقد بوجود إله واحد قاطن بالسّماء ويسمّونه التجيرا *Altjera* ، وعقيدتهم هذه عريقة عندهم في القدم .

ومن القبائل الإفريقية أيضاً قبيلة الزولو المتوحشة ، نلاحظ أن أفرادها يعتقدون بوجود آله غير مرئي هو أب لجميع الناس ويدعونه (انكو لنكو لو) *Unkelunkule* .

ومن القبائل الإفريقية العريقة في القدم قبيلة نوريلي *Norelli* نلاحظ أن أفرادها يؤمنون بوجود إله جبار غير مرئي أيضاً . كما أن قبيلة نزامبي *Nzambi* الإفريقية تؤمن بوجود إله وحيد لهذا العالم وهو أب لجميع الناس .

والهنود ، في شبه القارة الهندية يعتقدون بإله يسمونه (درونا) وهو في نظرهم غير محدود القوى والطاقات وهو عالم الغيب . ويعتقدون أنه ما من إنسان واقف أو ماشٍ أو مختف أو مضطجع أو متهامس مع نجيّه إلاّ ويكون الإله (درونا) عالماً به غير غارب عن نظره ، كما يعتقدون أن الإله (درونا) هو مالك الأرض والسماء . ليس بمقدور إنسان أو سواه أن يهرب خارج حكومة هذا الإله . وأن عقيدة الهنود هذه غارقة في القدم وتعود لآلاف السنين .

فهذا مُنطلق في البحث يساعد على تبيان عقم النظريات القائلة بأن عقيدة الإله نشأت عند الإنسان بالتدريج ، كما يساعد على ملاحظة وجود عقيدة التوحيد عند الإنسان منذ فجر تاريخه . وينقض الزعم بأن الشرك سبق في وجوده التوحيد الخالص .

والذي يتابع أبحاث البحّاثة ميكز *Maigz* التي أجراها حول معتقدات الصينيين الأوائل فسيلتمس دليلاً قوياً وقاطعاً على بطلان هذه النظريات . إذ ثبت لميكز هذا أن سكان الصين الذين يعبدون اليوم أكثر من ثلاثة آلاف إله تقريباً ، كان أجدادهم الأوائل الأقدمون موحدّين ويعتقدون بوجود إله واحد لهذا الكون كذلك أثبتت الأبحاث أن البابليين كانوا في بادىء أمرهم موحدين .

ولماذا نذهب بعيداً ؟ إنّ المسلمين في عصرنا يؤلّفون مثالاً حيّاً في إثبات أن الشرك متأخر دوماً في نشوئه عن عقيدة التوحيد . فلا سلام قام على توحيد خالص من جميع شوائب الشرك . وهذا أمر لا يختلف فيه أثنان . فمحمد رسول الله ﷺ حطّم بيده الأصنام القائمة في البيت الحرام . وصحابته اجتثوا كل الأشجار التي كان المشركون يقدسونها . والصلاة الإسلامية مثال رائع على عبادة الله الواحد الأحد . ولا ننسى قول عمر بن الخطاب عند تقبيله للكعبة : « لو لا أن رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك فإنك حجر لا ينفع ولا يضرّ » . والقرآن الكريم حافل بآيات التوحيد ودلائله وبراهينه .

رغم هذا كله تلاحظون مسلمي عصرنا ، لم ينقض على ظهور الإسلام لديهم أكثر من أربعة عشر قرناً ، وقد تفشّت ظواهر الشرك في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم . أفلا نلاحظ سجود كثرة منهم للأولياء على القبور . وتقديس الأشخاص والأشجار ؟ فشتان ما بين توحيد محمد ﷺ وأصحابه . توحيدهم القائم على أصول التوحيد الخالص ، وما بين توحيد كثير من مسلمي عصرنا القائم على توحيد مشوب بالشرك في كثير من جوانبه . وهل بالإمكان التسليم بأن توحيد مسلمي عصرنا قائم عامة على مستوى توحيد مسلمي صدر الإسلام ؟ .

إن الإسلام وهو على هذه الدرجة من التوحيد ، نلاحظ كيف انحدر أتباعه بعد أربعة عشر قرناً من الزمان إلى الدرك الأسفل من الشرك في كثير من جوانب حياتهم . وهذا الأمر يعتبر في حدّ ذاته ، دليلاً بيّناً واضحاً على أن حالة كل شرك لابد أن يكون أصلها حالة توحيد . وهذا يبين لنا معالم هذه النظرية التي أقول بها وهي أن الشرك هو متأخر دوماً عن التوحيد في نشوئه لا محالة . ويشكل دوماً حالة وصورة إنحطاط لذهنية المتأخرين من الموّحدين . وأن على المرء أن يفتش عن تاريخ كل أمة مشركة ، منقباً عن أصل عقائدها ، وأنه لابد سيجد أنها قامت أصلاً على التوحيد وانتهى أبناؤها بعد عصور ليقولوا إنّما نعبد هذه لتقرّبنا زُلفى من الله . وإننا بمحاكمة عقلية بسيطة ، ندرك أنه ما دام هنالك خالق لهذا الكون ،

فلابدّ أن يبادرهذا الخالق لإعلام مخلوقه بوجوده منذ بلوغ هذا المخلوق سنّ البلوغ العقلي والإدراك ، ذلك أنّ هذا المخلوق محدود القوى والقدرات ،لا يمكنه أن يتعرّف خالقه هذا بقدراته الفكرية وحدها . وبألفاظ أخرى كان لابدّ من نزول الوحي بالبيّنات والهدى على بني نوع الإنسان منذ فجرْ تاريخهم .

هذا ، وأنه إن ثبتت صحّة النظريات المعاصرة التي يروجوّنها بين الناس ، من أن فكرة الإله والوحي والتوحيد إنما نشأت تدريجياً عند الإنسان . إن صحّت هذه النظريات فلن يسلّم عاقل بعدها بوجود الإله بأيّ صورة من الصور .

إن الإسلام عرض نظريته هذه في موضوع الخالق والوحي والتوحيد في حدود الأطر التي ذكرتها ، وذلك في دعاء سورة الفاتحة وبشكل مدهش وعظم . حيث أوجب دعاء الفاتحة على المصلي في كل ركعة من ركعات الصلاة بل جعل شرط صحّة الصلاة تلاوة دعاء الفاتحة . وأول ألفاظ هذا الدّعاء [الحمد لله رب العالمين] . وإنهم لقلّة من الناس الذين يتدبرون معنى (ربّ) وحقيقة الربوبية وأبعادها .

ورد في مفردات الراغب . الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام . ويستعمل لفظ (الربّ) لله ، كما يستعمل لسواه ، شريطة أن يرد لسواه مضافاً . كربُّ الدّار ورب الفرس . أما إذا ورد مجرّداً عن الإضافة فلا يكون المقصود به إلاّ الله عز وجل .

والخّص لكم مدلولات [الحمد لله رب العالمين] على ضوء هذا المعنى ، وذلك في الأمور التالية لتلاحظوا كيف أعلن هذا الدعاء هذه النظرية من اليوم الأول من نزول الإسلام إلى الناس كافة :

١ ـ جاء الدعاء بصيغة (الحمد) تنبيهاً إلى أن صفات الله تعالى تظل فوق فهم المخلوقات فلم يستعمل صيغة أحمد الله أو نحمد الله التي لا تفيد هذا المفهوم .

٢ ـ وأدخل الدعاء لام الاستحقاق على لفظ الجلالة (الله) تنبيهاً إلى أن ذات الله تستحق الحمد وتختص به . وأن حمد الناس بعضهم لبعض هو تُبع وفرع في حقيقته . ذلك لأن جميع ما يتمتعون به من محاسن ، إنما هي من عطاء الرحمن أصلاً .

٣ ـ وبتعريف [الحمد] بأل التعريف جاء التنبيه إلى أن الله تعالى يجمع في ذاته جميع المحاسن ويتنزّه عن جميع أنواع النقائص . وهو في هذه الحالة محيط علمه بحقيقة مخلوقاته ، على حين يقصر علم مخلوقاته عن إدراك حقيقة أي شيء من الأشياء . وهذا التنبيه أيدّته الاكتشافات العلمية . ذلك أن علماء الطبيعة يرون أنفسهم في دوّامه . فكلما حلّوا لغزاً من ألغاز الكون تراءى لهم ألغاز وألغاز جديدة .

٤ ـ وفي قوله [رب العالمين] تنبيه إلى أنه سبحانه أبدع نظامين أحدهما مادي والآخر روحي ، لمصلحة رقي الإنسان وتطويره . أبدع هذا تأكيداً منه على استحقاقه كامل أنواع الحمد .

٥ ـ وهذا الربط بين [العالمين] والربوبية (ربّ) كان للتنبيه بأن رسالة الإسلام هي في حقيقتها رسالة ذات صبغة عالمية موجهة إلى جميع أفراد بني نوع الإنسان . وأن في هذا تأكيد أيضاً لاستحقاق الله الحمد وحده .

٦ ـ وبالنظر إلى معاني صفة الربوبية فقد لفت نظرنا إلى أن جميع المخلوقات خاضعة لقانون الإرتقاء . حيث لا تستوي بداية أي شيء مع نهايته . بل كل شيء مشمول بقانون الإرتقاء بمعنى تطوره من حالته الدنيا إلى حالة أسمى فأسمى ، وهذا يجري في ظل عمل ربوبية الله عز وجل .

٧ ـ وأن [رب العالمين] يعني أن الله هو الخالق لهذا العالم وأن كل شيء في هذا الكون مخلوق ، وليس بخالق ولم يوجد بنفسه .

٨ ـ وأورد لفظ [العالمين] تنبيهاً إلى أن قانون التطور لا يشمل الإنسان وحده . بل يشمل كل العوالم من جماد ونبات وحيوان ، وربوبيته شاملة إياها كلها .

٩ ـ وفي استعمال صفة [رب] تنبيه كذلك إلى أن قانون الارتقاء مستمر ، وأن التطور في كل شيء يحدث على أزمنة متتالية وباستمرار . وهذا من منطلق معنى الرب ، الذي ينشىء الشيء حالاً بعد حال .

١٠ ـ وبقوله سبحانه [الحمد لله رب العالمين] نبه إلى أنه هو الذي أبدع قانون الإرتقاء الجاري في الكون والذي تظهر فعاليته في العالمين . فلا تضاد بين وجود هذا القانون وبين الاعتقاد بوجود الخالق . ذلك لأنه هو الذي خلقهم ، وأبدع هذا القانون لينقلهم من حال إلى حال ويطورهم بإتجاه الكمال .

١١ ـ وفي صفة الربوبية في هذا الدعاء تنبيه أيضاً إلى أن عملية إنزال الوحي وتدارك حال الإنسان منذ بلوغه مرحلة الإدراك والوعي ، رافقت الإنسان في كل مكان على وجه البسيطة وحيث وجدت جماعة من جماعاته . فلقد أرسل الله الربّ رسله تترى وأنزل معهم الهدى والبيّنات ، في ظل عمل صفة الربّوبية لله الشاملة لجميع مخلوقاته . وفي هذا الإعلان تحدٍّ صارخ وحاسم للنظريات القائلة بالتدرج في نشوء عقيدة الإله في العالم .

١٢ ـ وفي قوله سبحانه [رب العالمين] تنبيه إلى أن وحدة العالم المادية ، يرافقها وحدة العالم الروحية ويمثل هذا كله وحدانية الله ووحدانية ربوبيته . وأن نزول الدين الإسلامي العالمي الصبّغة أكمل مظاهر الوحدة الروحية لجميع بني نوع الإنسان .

١٣ ـ ويمكن القول أخيراً إن دعاء [الحمد لله رب العالمين] تضمّن تسفيه عقيدة تعدّد الآلهة ، ودحضَ النظريات السائدة في عصرنا حول الدين ونشوئه . وهو إعلان بأن مصدر الأديان كلّها هو واحد وهو [الله رب العالمين] .

ونظرية الإسلام هذه بخصوص الوحي والربوبية ، وقد أعلنها الإسلام في أول آية من آيات كتابه القرآن المنزل ، بهذه القوة ، وعلى هذه الأسس والمعالم ، وفي زمان لم تكن الطريقة العلمية قد تبلورت فيه بأذهان العلماء ، ولا كانت منهجهم . وفي وقت ما كانت الاكتشافات العلمية قد أمدّت الإنسان بشيء

يُذكر . إن النظرية الإسلامية هذه التي أعلنها القرآن الكريم في أوائل زمان نزوله ، تشكل ، في حدّ ذاتها ، دليلاً قاطعاً على أن الله سبحانه هو الذي كشف نفسه ووجوده لمخلوقاته ، ومنذ أول أيّام وعيهم ، مثبتاً بذلك عمل صفة ربوبيته في جميع العوالم التي خلقها وتلّطف بتطويرها من حال إلى حال متجهاً بالعالمين نحو حالة كمال هي الغاية من خلقهم جميعهم دونما جدال .

وباختصار ، لا ينبغي تصوّر الإنسان وقد تحرك تلقائياً منقبّاً عن خالقه والغاية من خلقه . لا بل إن الصوت والمحرك لم يأته من داخله ، بل جاءه من خارجه . جاءه النداء من خارجه عن طريق الخالق الربّ نفسه الذي خلقه وربّاه ورعاه حتى بلغ به مرحلة الوعي والإدراك وناداه أنه موجود ، وذلك بوسيلة الوحي السمائي كما ذكرت .

إن الإنسان لم يلتفت إلى فكرة وجود الخالق من نفسه . بل التفت إلى فكرة وجود الخالق من كثرة النداءات الموّجهة إليه من خارجه وعن طريق الأصفياء الأبرار من بني نوع الإنسان .

وبسبب عدم نضج هذا الإنسان عقلياً في بادىء أمره وتاريخه ، فقد فهم المجاز الكلامي على أنه حقيقة واندفع بعيداً كل مرة عن جادة التوحيد الخالص كما رأينا . ذلك أن الخالق كان يخاطب مخلوقه بادىء ذي بدء على قدر عقله بالمجاز ، كما يفعل أحدنا مع أبنائه الصغار ، تقريباً للمواضع من أفهامهم . وكان يأتي في كل مرة جيلٌ جامدٌ في فهمه يقلب المجاز حقيقة . ويفسر الأقوال على غير مضامينها الأصلية وينتهي بالناس إلى هوّة الشرك والإنحطاط. وهذه الظاهرة يلاحظها كل واحد منّا في أوساط اتباع الديانات السماوية . وكيف ترعرعت في جميع هذه الأوساط عقول جامدة متزمّتة لا تفّرق بين الحقيقة والمجاز وتفهم تعاليم شرائعها وعقائدها الموروثة على صورة تسيء إلى الديانات السماوية نفسها وتشوّهها في نظر غير المتدينين .

من هذا كله ندرك كيف جعل الخالق للعقل ثلاثة عوامل مساعدة . ومنها عامل الوحي السّمائي وكيف أنعم بل تفضّل على الإنسان بنعمة هذا العامل ، لكونه رب العالمين . بل هيأه له على وقت الضرورة . هيأه له بعد أن أمضى الإنسان فترة عمر طويلة في الكهوف والمغاور ، وحتى نضج عقله وإدراكه وأضحى أهلاً لبدء حياة إنسانية هادفة . أقول أعدّ له هذا العامل الثالث ألا وهو وحي السّماء وابتدأ بواسطته تاريخ الإنسانية المعروف .

بوحي السماء خرج الإنسان من كهفه . ونزل إلى السهل يبني ويزرع ويستغل هذا الكون . ويبني الحضارات . وكان كلّما كبا على ركبته ، ساعده وحي السماء على الوقوف ثانية على قدميه واضعاً إياه على الصراط المستقيم الذي جاءه وفقاً لمقتضيات قواه وفطرته حتى كان نزول القرآن آخر هذه التعاليم هدى ورحمة للناس .

أقول القرآن آخر التعاليم ، لأنه اكتملت بفضله الهدايات السماوية . ولا أقصد بذلك انقطاع وحي السّماء غير التشريعي . لأن (الربّ) يظل [رب العالمين] حتى انقضاء هذا العالم . ومن أسمائه (المتكلم) فلا تتعطلّ صفة الكلام فيه ، كما ذهب إلى ذلك طبقة من المتدّينين ، الذين قالوا بانقطاع الوحي السماوي بعد بعثة رسول الله بجميع أنواعه .

أوليس من العجيب أن يتعامى الناس ، فلا ينتبهوا إلى عمل ربوبية الله تعالى في حياتهم وعلى مختلف الصعد الحياتية ؟ إنني ذكرت أن (الرب) لغة هو الذي ينشيء الشيء فيطوره حالاً بعد حال حتى يصل به مرتبة الكمال . أولا نرى هذا المعنى وقد تجلّى في قوانين التطور والإرتقاء العاملة في شتى مجالات هذا العالم ؟ .

وحتى الشرائع والتعاليم السماوية قد نزلت ضمن إطار مفهوم الربوبية هذا . وهل من أحد يستطيع أن يسوّي ما بين إنسان القرْن العشرين علماً وإدراكاً ، وبين إنسان الكهف ما قبل التاريخ ؟ أوليس في هذا الأمر كل الدلالة على تدخّل صفة الربوبية في حياته ؟ .

أفلا نلاحظ غلبة استعمال المجاز والتشابيه في التعاليم المُنزلة على إنسان فجر التاريخ . وكيف أن هذا المجاز والتشبيه أخذ يتناقص كمّاً ونوعاً على قدر تطور علم الإنسان وإدراكه ، في شتى مراحل حياة الدعوات السماوية ، حتى رأينا القرآن الكريم ، وقد نزلت تعاليمه ، وليس فيها من المجاز والتشابيه إلا بقدر ما كان موجوداً في أوائل الشرائع والتعاليم من حقيقة كلامية ؟ وفي الوقت نفسه ورغم وجود هذه الظاهرة التطورية ، فإن أسس الديانات السماوية كانت واحدة تدور حول وجود الخالق وملائكته ويوم الحساب .

وأخيراً أفلا نلاحظ كيف بُعث رسل الله وأنبياؤه كلٌّ منهم إلى قوم معين ، منذ فجر تاريخ الإنسان ، وفي مختلف أرجاء المعمورة ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : [ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً منهم . . . .] . يبعثون مربينَ لهذه الأمم ومطورين لجميع نواحي الحياة عندهم ، حتى إذا لاحت في الآفاق تباشير تلاقي شعوب الأرض وتعارفها . وحتى إذا تبدّت مؤشرات توحدّ العالم على صعيد واحد من المفاهيم . رأينا كيف انقلب الأمر فجأة . وانقطعت سلسلة الرسالات القومية ، لتحلّ محلّها رسالة عالمية ذات تعاليم تتصف بالكمال تعالج مختلف نواحي الحياة الإنسانية المادية منها ، والروحية ؟ هذه الرسالة العالمية التي تمثلت في ظهور الدين الإسلامي ونزول القرآن المجيد الذي أمر فيه محمد رسول الله أن يعلن : [يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً] .

ولا شك إن الإنسان المدقق الباحث ليلاحظ أن ظهور كل رسول وكل شرع سماوي وفق الضرورات الزمانية المختلفة ومقتضياتها على الدوام إنما يشكل البرهان القاطع على صدق رسل الله جميعاً ، ويثبت وجود خالق يتصف بالربوبية وهو [رب العالمين] .

من هذا المنطلق فليدقق المدققون ، وليبحث الباحثون ، وليستهد العلماء والمفكرون .

***

الفرق ما بين الخَلْق ،
والخُلْق الفاضل

هنالك في اللغة العربية لفظان يعبّران عن ظاهر الإنسان وباطنه من حيث أصل وصفهما . وهذان اللفظان هما : الخَلْق بفتح الخاء وبتسكين اللّام ويراد به ظاهر الكيان الإنساني . والخُلْق بضم الخاء مع ضمّ اللام أو سكونها ويراد به جبلة الإنسان الباطنة .

وإننا ، من خلال نظرية جذور الأخلاق التي قدمناها ، تمكنّا من إدراك معالم جبلة الإنسان الباطنة ، وقلنا إنها هذه الصفات الطبيعية التي تتصف بها النفس البشرية والتي يلاحظ فيها التوازن والازدواجية بصورة فطرية . وهي التي اصطلح القرآن الكريم على تسميها بإسم (الفطرة) أي ما فُطر باطن الإنسان عليه من قوى تشكل أرضية تحركاته وأفعاله .

فمن خلال بحثنا في نظرية جذور الأخلاق توصلنا إذن إلى فهم معنى الخُلُقُ بضم الخاء واللام أو سكونها . هذا اللفظ الذي يجمع على أخلاق . وأفادنا ذلك في تعريف الخلق بشكل محدد وواضح وبكل سهولة ويسر على حين وجدنا أن الذين جهلوا جذور الأخلاق ، واعتمدوا على عقلهم المجرد ، دون مساعدة العوامل الثلاثة التي ذكرتها ، والتي اختصها الخالق بالعقل لمساعدته على الإدراك اليقيني . وجدنا هؤلاء يختلفون في تعريف الخلق والأخلاق اختلافاً شديداً ويضلون ضلالاً بعيداً . حيث عرّف بعضهم الخلق : أنه مادة الصلاح التي فطر الإنسان عليها دلالة على وجود الخالق . عرّف آخرون الخلق : أنه حصيلة تجارب

إنسانية ذات تاريخ طويل انتقلت إلى الإنسان عن طريق الوراثة . كما وجد من عرّف الخلق : على أنه ملكة في النفس عميقة الجذور ، ويصدر عنها أفعال من إقدام وإحجام دونما تدخل عامل الفكر والروِيّة .

إن اختلاف هؤلاء جميعهم في أمر تعريف الخلق يعود كما بينت إلى عدم انتهاج هؤلاء الطريقة العلمية في استقصاء جذور الأخلاق ومنابعها وهذا ما جعل أقوالهم تتضارب في تعريف الخلق ، بل تركهم متناقضين تائهين .

من هذا نعلم أن الخُلق لا يعني صفات الحلم والعطف والتواضع ، كما يتبادر للأذهان . بل يشمل جميع كيفيات الكمال البشري التي فطرت عليها جبلّة الإنسان وباطنه . هذا كله بمحاذاة أعضاء خلقه الظاهري .

ولمّا كان الإنسان يمتاز عن بقية المخلوقات بملكة العقل والإرادة . كان لزاماً علينا أن نعرّف الخُلق بضمّ الخاء تعريفاً أدق مراعاة لهذا الامتياز . وإنيّ لأضع التعريف التالي للأخلاق . أعرف الخلق بأنه : الصفات الطبيعية للإنسان التي تصدر عنها أفعاله عن فكر وروية ، مع قدرته على الإقدام أو الإحجام .

وأوضح هذا التعريف بالمثال التالي : لنفرض أن رصاصة طائشة أصابت فرداً غير معين من الناس . فمن أول مظاهر ردود الفعل المتأتية عن هذا الحادث في نفوس الذين حول المُصاب ، أن يتألم أصدقاء المصاب لما أصاب صديقهم . على حين يهتاج أعداء المصاب وتظهر عليهم علائم الشماتة بهذا المصاب . يحدث هذا كله بشكل آليّ وطبيعي وعن وعي أيضاً . وهنا نلاحظ أنفسنا كمحايدين نميل إلى مديح الذين شاطروا صديقهم آلامه ، قائلين إنهم أحسنوا عملاً . على حين نميل إلى ذمّ الذين شمتوا بالرجل المصاب قائلين إنهم أساؤوا صنعاً .

إن هذا الوصف للعملين صدر عنّا موزوناً بميزان نسبي ، وليس هو وصفاً طبيعياً وفطرياً . بينما نجد أن الفريقين قد تصرّفا على سجيتهما ، وبشكل عفوي مع وعي لحاليتهما .

ومن ثمّ أدركنا من هذا المثال صحّة التعريف الذي وضعته للخلق والأخلاق . من أنه صفات الإنسان الطبيعية التي تصدر عنها أفعاله عن فكر وروية ، مع قدرته على الإقدام أو الإحجام .

إن ردود الفعل الطبيعية هذه هي أشبه بالأفعال الغريزية عند الحيوان لو لا وجود فارق العقل والإرادة والإدراك . وإن ردود الفعل هذه ، التي تضمنها المثال المذكور ، يصحّ أن نسميّها أخلاقاً أيضاً . مراعاة لأصل وضع لفظ الخُلُق بضم الخاء .

وإننا متى بدأنا نصيغ تصرفات الفريقين في المثال المذكور بصيغة الحسن والقبح . إننا عند هذه النقطة نفسها نكون قد تجاوزنا حدود معنى الأخلاق ، ونكون قد دخلنا حرم إطار الأخلاق الفاضلة أو الأخلاق العظيمة . إذ شتان ما بين الخلقين . وإلى هذا الفارق أشار قول الله عز وجل في خطابه الموجّه إلى رسوله الكريم محمد خاتم النبيين : [وإنك لعلى خُلق عظيم] ، إشارة إلى أن أفعال رسول الله ﷺ لم تكن مجرد أفعال طبيعية ، بل كانت أفعالاً موزونة وموجّهة بميزان معلوم وذات اتجاه معينّ . وبألفاظ أخرى نقول إن الأخلاق الفاضلة أو الأخلاق العظيمة تختلف اختلافاً جوهرياً عن الأخلاق الطبيعية . من حيث صدورها بتوجيه من العقل والإرادة وعلى ضوء الوحي السّماوي .

الحُسن والقبح في الأخلاق إذن هو شيء نسبي . ولا يكون إلاّ وفق معيار معينّ أو معايير معلومة . ومن ثم لابّد من وجود اختلاف ما بين تعريف الخُلُق الفاضل وفقاً لهذه المعايير والموازين .

ولا أرى هنا ضرورة لسرد ما وضع للخلق الفاضل من تعاريف حتى هذا اليوم . إذ كان الأختلاف كبيراً بين مختلف التعاريف لاختلاف الموازين والمُنطلقات . ذلك أن منهم من عرّف الخلق الفاضل أنه استعمال المرء لقواه بتوجيه العقل . ومنهم من عرّفه على أنه الأفعال التي تتأتى للإنسان من ورائها سعادة حقيقية .

ومنهم من عرّف الخلق الفاضل أنه الإيثار لمصلحة الآخرين . أو الإيثار بتوجيه العقل . وكثير من أمثال هذه التعاريف الناشئة كما قلت عن موازين ومنطلقات لكل تعريف من هذه التعاريف .

فهل نترك الإنسان يتصرّف ودون سجيّته ، ودونما هدف محدّد ودون أي معايير معلومة ، ونسقط من ثم عن أنفسنا عناء وضع تعريف لخُلُق سميناه بالخلق الفاضل ؟ أم أن هنالك من كفانا هذا العناء ؟ .

الـوحـي السـمـاوي
توخّى للحياة البشرية مقصداً أسمى

من أبسط الملاحظات التي يلاحظها كل إنسان هو أن المرء لا يقدم على عمل دون أن تسبقه نيّة للقيام بهذا العمل . وهذا كائن أيضاً على مستوى الفكر والإرادة . وحتى على صعيد الرياضية يلاحظ أن من يُروّض مُكرها دون نيّة معقودة في نفسه ، فلا يستفيد من رياضته هذه على الوجه الأمثل ، كما دلت الأبحاث العلمية على ذلك في هذا المجال . وإلى موضوع النية هذه أشار رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الشريف : (إنما الأعمال بالنيّات ، ولكل امرىء ما نوى . . .) صحيح البخاري .

وإن النيّة لا تنعقد دون هدف معلوم عند الإنسان . كالشعور بالجوع يكون مبدأ هدف يشكل نيّة الإقبال على الطعام . والتضحية من أجلها . كذلك فإن إدراك عمل ربوبية الخالق في معالم النفس والوجود تكون مبدأ نيّة الإقبال على شكر هذا الرب الخالق وطاعته والالتزام بوصاياه وإرشاداته .

من هذا المنطلق كان لابد من تحديد مقصد أسمى للحياة الإنسانية تصلح لتكون نسيج نيّاته في جميع حركاته وسكناته وأساليب تفكيره . أما إذا تُرِك الإنسان على غاربه بدون تحديد لهذا المقصد الأسمى من حياته . فلا تعود نيّاته تنعقد إلا بطريقة غريزية هي أشبه ما يحدث في عالم العجماوات . وهذا ما ينزل الإنسان عن مقامه وتكوينه الذي جاء في أحسن تقويم ، ينزل به إلى أسفل سافلين بل ودون ما توقفت عنده هذه العجماوات . وإننا إذا ما أمكننا معرفة هذا المقصد الأسمى

من خلق الإنسان ، أمكننا من ثمّ وضع تعريفٍ محدّدٍ للخُلُق الفاضل أو ما يسمى بالخُلُق العظيم .

والحق أن هذا السؤال مطروح للبحث في شتى عصور تاريخ بني نوع الإنسان . وقد ذهب الفلاسفة والمفكرون في أمر تحديده مذاهب شتّى ، ومن منطلقات مختلفة . وأهملوا جميعهم أمرين رئيسيين هامّين : أولهما هو أن العقل المجرّد محتاج في حقيقة خلقته إلى مساعدة عامل الوحي السماوي المساعد في حقل الأمور غير المحسوسة . وثانيهما هو عدم انتهاج هؤلاء جميعهم منهج الطريق العلمية في البحث والاستقراء .

أفلا نرى ونلاحظ أننا ما قدمنا إلى هذا العالم الدنيوي بمحض أرادتنا ولا نحن بتاركي هذا العالم بأختيار منّا . أفلا نلاحظ كيف تمضي أعمارنا في عالمنا هذا أسارى الماء والهواء والنور والغذاء في هذا العالم .فنحن ضمن هذا الإطار كله مستعبدون إذن لهذه القوى وأسارى بين يدي مالكها ومحرّكها . وإن كنا نعمل جاهدين دوماً للتخلص من سيطرتها دونما فائدة ، أو جدوى معلومة . فهل تعمل أعيننا دون النور ؟ وهل تسمع أذاننا الأصوات دون الهواء ؟ وهل تلمس حواسنا الأشياء غير الملموسة وغير المادية ؟ وهل تعمل حاسة شمنا دون وجود روائح ؟ أو هل يستمر نمو أجسادنا دون الغذاء ؟ .

وباستعمال أسلوب الإستقراء العلمي يمكن تقدير الغاية من وجود أي مخلوق كان . ويكون هذا بالنظر في أقصى شيء يستطيع هذا المخلوق إنجازه وتقديمه .

إن الثور ، على سبيل المثال ، غاية ما يستطيع تقديمه هو لحمه وجلده ، أو الإعانة في مجال الحرث والنقل . ويُقال بعد هذا الإستقراء إن الثور قد خلق لتقديم هذه الحاجات الضرورية للإنسان .

والدجاج بمثال آخر ، لا يستفاد منه عموماً أكثر من جني بيضه ، وتناول لحمه . ونقول بهذا الأسلوب الإستقرائي أن المقصد من خلق الدجاج هو توفرّ هذه الحاجّات الضرورية للإنسان .

ونفس هذا نقيسه على النّحل فنجد أنه إنما خلق ليصنع لنا عسلاً فيه شفاء للناس . ونقول بذلك إن المقصد من خلق النحل هو توفير مادة العسل لفائدة وخير الإنسان . وعلى هذا النحو نتمكن من تقدير المقصد الأسمى من وجود جميع المخلوقات .

وإن هذا المنهج الإستقرائي العلمي نفسه يمكن الإستعانة به عند محاولة تقدير المقصد الأسمى من خلق الإنسان . فمن حيثيّة أن الإنسان كائن حيّ ومخلوق ، فلا يُلاحظ في أكله وشربه وسعيه شيء مهمّ يتجاوز مقتضيات ميوله وشهواته ومتطلّبات حياته المادية . شأنه في ذلك شأن بقية المخلوقات . لكننا نلاحظ بأن الإنسان يفترق هنا فقط ، بحكم ما أوتيه من ملكات سامية ، بما عنده من ظمأ شديد إلى كشف أسرار هذا الكون والبحث فيها وراء المحسوسات ، بحرقة وشغف شديدين . بل نلاحظ عبر تاريخ الإنسان الطويل ، قد ظهر أناس لا يحصون ممّن أمضوا جُلّ حياتهم في هذا السبيل ، غير عابئين بشيء آخر سواه . متجاوزين ميوليهم وشهواتهم ومقتضيات حياتهم الدنيا . وهذا أمر اطلع عليه كل من تابع تاريخ النوع البشري بدقة .

إن هذا الظمأ لمعرفة الحقيقة عند الإنسان . حقيقة مبدأ الكون ومساره ، ومنتهاه ، حقيقة وجود الخالق ، بل لنقل أنه الظمأ إلى معرفة المقصد الاسمى من وجود الانسان نفسه . هذا الأمر الذي عرفناه بطريق الاستقراء العلمي ، والذي يشكل أرضية معرفة المقصد الأسمى من حياة الإنسان ، وإن كان لا يساعد على تحديد واضح للمقصد الأسمى نفسه وماهيته . إلّا أنه يضع بين أيدينا دليلاً قوياً على وجود مقصد أسمى محدد . وإلّا فإلى أين سينتهي هذا الظمأ الجارف ، من التنقيب عن الحقيقة ، بالإنسان . إلا أن يكون قد رُسِمَ له مصير محتوم ؟ .

وعند هذه النقطة نفسها ، وعند هذا العجز الذي يبديه العقل في هذا المجال ، نزل الوحي السماوي ، منذ فجر تاريخ الإنسان ، منبهاً هذا الإنسان إلى المقصد الأسمى من خلقه حاثاً إياه على السعي لتحقيقه . وقد أعلنه القرآن

الكريم في سورة الذاريات بقوله سبحانه : [وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون] .

هذه الآية الكريمة ، أخذ السّطحيون المعنى الجاف لها وهو أن على الإنسان اعتزال دنياه ، والتفرغ للركوع والسجود بين يدي خالقه . وغفل هؤلاء عن المعنى الجوهري الذي تضمنته .

وحتى يتضّح لنا المعنى الحقيقي المقصود من قوله تعالى [ليعبدون] . أدرج الآية بسياقها وسباقها . قال تعالى : [وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين * وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون * ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوّة المتين * فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون] ـ الذاريات ـ .

لفت ربنا سبحانه أنظارنا في قوله [وذكّر] إلى أن موضوع الكلام عن المقصد الأسمى من خلق الإنسان قد أعلنه الله سبحانه للإنسان بفضل وحيه السماوي منذ فجر تاريخ الإنسان . وأنه سبحانه لا يأمر رسوله الكريم هنا بإعلان هذا المقصد الأسمى من خلق الإنسان إلاّ على سبيل التذّكير ، وأنّه ليس بإعلان جديد في حقيقته ومضمونه . ثم وضحّ هذا المقصد من خلق الإنسان بقوله [وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون] . وساعدنا سبحانه على التوصل إلى هذا المقصد ، مؤكداً لنا أن طريق الإستقراء العلمي لابدّ أن يدلنا أيضاً أن الطعام والشراب يستحيل أن يكون هو المقصد من خلق الإنسان ، ذلك لأن الطعام والشراب إنما هما أمور اقتضتها مقومات الحياة عند الإنسان ووفّرها الخالق بصورة قوية ومتينة لا تهدده بأي خطر جارف . وعبر عن هذا بقوله [إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين] أي أنه سبحانه أمّن لجميع مخلوقاته مصادر رزقهم حتى يساعدهم ذلك على قيام حياتهم من منطلق القوة والمنعة . ثم يتوّجه سبحانه إلى الإنسان محذّراً إياه من مغبّة الغفلة في مجال إدراك هذا المقصد من حياته والسعي لتحصيله قائلاً : [فويل

للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون] . ولا يُراد من [الذين كفروا] هنا حسب سياق الكلام إلاّ الذين كفروا بهذا المقصد من حياتهم مهملين السعي لتحصيله والذين تراكمت ذنوبهم نتيجة لهذا الإهمال وأضحوا ظالمين لأنفسهم كما قال : [فإن للذين ظلموا] أي بتركهم السعي لتحصيل هذا المقصد [ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم] من الذين سبقوهم في مختلف حقبات تاريخ الإنسان ، فلا يستعجلون] أي أن العواقب الوخيمة التي تتأتى من هذا الإنحراف عن المقصد الأسمى للحياة لا تظهر مباشرة ، بل يترك آثاراً تتراكم شيئاً فشيئاً وتنتهي [بالويل] أي الدمار لعاقبه هذا الإنسان . وكأنه سبحانه وتعالى يقول بألفاظ أخرى بأن لكل شيء آثاره ونتائجه ، وإن الذي لا يدرك المقصد من حياته ولا يسعى إلى تحقيقه والسير في مساره ، يجد نفسه في نهاية عمره محروماً من الثمار المرجوة من وراء تحقيق هذا المقصد الأسمى من الحياة .

فما هو مضمون هذا المقصد الأسمى لحياة الإنسان والذي اختصره سبحانه بقوله : [ليعبدون] ؟ يمكن فهم مضمونه بالاستعانة بالمفهوم اللغوي لهذا اللفظ من جهة . بالاستعانة بالقرآن على تفسير القرآن من جهة أخرى .

فمن الوجهة اللغوية ، تقول عَبَدَ لله : بمعنى طاع له وخضع وذلّ وخدمه والتزم شرائع دينه ووحّده (محيط المحيط) . فإذا أضفت لفظ العبد إلى اسم الجلالة (الله) تجمعه العرب على : عباد الله . وإذا أضفت هذا اللفظ إلى مخلوق تجمعه العرب على عبيد . ولقد دأب العرب على هذا التفريق تبنياً منهم للفرق الكائن ما بين عبودية الإنسان لربّه وما فيها من خير ورفعة وما بين عبودية الإنسان لأخيه الإنسان ، وما فيها من مذّلة ومهانة وبدعة . وعليه فإننا بقولنا عبد الله لا نكون قد قدّمنا مضموناً جديداً على أصل وصفه اللّغوي ، إذ إن الإنسان هو أسير هذه الطبيعة وهذا الكون المملوك والمخلوق . والإنسان هو عبد طوعاً وكرهاً . فإن كان المراد من [ليعبدون] يطيعون ويسجدون لي ، كان ذلك من قبيل تحصيل الحاصل ، لأن الإنسان هو عبد في حقيقته لكونه أسير الماء والنور والهواء والغذاء ، فلا هو جاء إلى هذا العالم بمشيئته ولا هو مغادرة برضاه . وهكذا

فلابدّ أن يكون [ليعبدون] معنى أعمق وأوسع مدى . ويمكن التوّصل إليه إذا فسّرنا القرآن بالقرآن وهو نهج محمد رسول الله ومن منطلق أن القرآن كتاب احكمت آياته ثم فصّلت من لدن عليم خبير .

وبعودة إلى سورة فاطر نجده سبحانه يحدد ويوضح المقصد من خلق الإنسان حيث يقول الله تعالى فيها [هو الذي جعلكم خلائف في الأرض * فمن كفر فعليه كفره * ولا يزيد الكافرين كُفرهم عند ربّهم إلّا مقتاً * ولا يزيد الكافرين كفرهم إلّا خساراً] وخلائف في هذه الآية مفردها خليفة وهو من يخلف غيره ويقوم مقامه (محيط المحيط) . فإذا علمنا أن معنى جعل الشيء هو صنعه وخلقه وأوجده وهيأه وقدّره وحيّره . يكون معنى الآية الكريمة أن الله تعالى خلق الإنسان لمقصد أسمى هو استخلافه في الأرض نيابة عن خالقه . وأنه سبحانه حينما خلق الإنسان هيأه وقدّره وصيّره على نسبة موافقة لهذا المقصد من الحياة ألا وهو استخلافه في الأرض . وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى في قوله [ليعبدون] . لأن المستخلَفْ لا يكون إلا على شاكلة المُستخلِفْ بكسر اللام . يتلّون بلون مُستخلفه ، وينصبغ بصبغته وصفاته ويحاول أن يكون مظهراً لمقامه في سلوكه وتصرّفاته ، ويسعى جاهداً لتنفيذ أوامره وتوصياته . ويمكن القول هنا وبألفاظ أخرى أن حقيقة الاستخلاف تتجلّى على صعيدين : الأول منهما هو التخلّق بأخلاق المستخلِفْ . والثاني هو السلطان المكتسب للخليفة على المستخلف فيهم في إطار التبعية والخضوع لصاحب الاستخلاف .

وقد رأينا أن رسول الله ﷺ فهم هذا المعنى نفسه لذلك حضّنا على التخلق بأخلاق الله وأسمائه الحسنى . كما نبّهنا الخالق نفسه إلى أنه سخّر لنا ما في الأرض جميعاً وجعل لنا حق الهيمنة على ما في هذا العالم على سبيل الظلية والاستخلاف . وقد جمع الله تعالى حقيقة الاستخلاف هذه في قوله سبحانه [ليعبدون] بمعنى ليتخلقّوا بأخلاقي وتكون لهم وحدانية الهيمنة على ما في الكون .

هذا هو تفسير القرآن بالقرآن . ذلك أن الله تعالى عندما قال [هو الذي جعلكم خلائف في الأرض] مبيّناً المقصد الأسمى من خلق الإنسان ، عقب على

ذلك بقوله : [فمن كفر فعليه كفره] أي أن الذي لا يسعى لهذا المقصد ولا يسعى لتحقيقه يحصد هو نفسه نتائجه وليس سواه . [ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً] أي أن الإنسان بإنكاره لهذا المقصد الأسمى من حياته يبعد نفسه عن بارئه ، فيمقُتُه ربه ولا يتوجه إليه بوجه المحبّة والتقريب [ولا يزيد الكافرين كفرهم إلّا خساراً] أي أن هذا الإنكار والبعد عن السعي لتحقيق هذا المقصد من الحياة ينقلب من حيث العاقبة وبالاً وخسراناً يبوء به صاحبه .

ففي هذه الآيات من سورة فاطر نبهّنا سبحانه إلى المقصد الأسمى من خلقنا مع التنبيه إلى عواقب ترك السعي في سبيل تحقيقه على حين نبهنا سبحانه في آيات سورة الذاريات إلى المقصد الأسمى من خلقنا مع توجيهنا بالأسلوب الإستقرائي لإدراك مضمون هذا المقصد من حياتنا . ذلك أن الموضوع الواحد في القرآن يتناوله الله تعالى في كل مناسبة بأسلوب وصيغة جديدةٍ كما هو معلوم لدى الراسخين في علم القرآن الكريم .

والخلاصة هي أن القرآن الكريم ، وهو وحي سماوي خالص ، قد عرض لأعُيننا نظرية عامة حول الإنسان والمقصد من خلقه . كان مفادها أن هذا الكون ما خلقه خالقه عبثاً ، بل خلقه بسابق تخطيط من عمله لقوله [وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما لاعبين] ـ سورة الأنبياء ـ وأن الإنسان ما خلقه خالقه عبثاً . دون مقصد وغاية واضحين لقوله [أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ؟] ـ سورة المؤمنون ـ بل نبّه سبحانه إلى أنه خلقكم وإيانا لمقصد حدده بقوله [هو الذي جعلكم خلائف في الأرض . . .] ، وهذا معناه أن نكون على صفات وأخلاق من استخلفنا ، ونستحق بذلك مكرُمة الاستخلاف هذه . ثم وضّح سبحانه ماهية هذا الاستخلاف بقوله [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون] ـ سورة الذاريات ـ بمعنى أن طبقتي الحُكّام والعامة ، وهو ما قصده بالجّن والإنس كما بينت في كتابي : « الجن حقيقة أم خيال » ، ما خلقت هاتين الطبقتين إلا ليتصفوا بصفاتي ويتخلقوا بأخلاقي ليخلفوني ضمن هذا العالم الذي خلقتهم فيه ، وإن عليهم أن ينصبغوا بصبغة خالقهم [صبغة الله * ومن أحسن من الله صبغة *

ونحن له عابدون] ـ البقرة ـ ومعلوم أن الصبغة هي حلية المصبوغ ولباسه ومظهره . ويظهر أثر الصبغة في الإنسان كأثر الصبغة في الثوب . ولقد استعمل سبحانه كلمة الصبغة هنا منصوبة بالفتحة لتفيد معنى الإغراء والحث على تحصيلها . والمعنى أنْ دونكم معشر الناس صبغة الله هذه ، فأعظموا بها من صبغة ، واصبغوا بها وتهذبوا بتهذيبها . قائلاً [ومن أحسن من الله صبغة] ؟ أي أنها تمثل الكمال بعينه الذي تتوق إليه كل نفس [ونحن له عابدون] أي أن المدركين لهذه الحقيقة تجدونهم حاثين الخُطا ليصطبغوا بصبغة الله هذه ويتخلقوا بأخلاقه سبحانه ويتهذبوا بما تراءى لهم من تهذيب . وإن لفظ [عابدون] هنا هو ما أراده سبحانه في قوله [وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون] .

هذا ، وقد وضّحتْ هذه النظرية القرآنية العامة بخصوص المقصد من خَلْق الإنسان ، أن الإنسان وحده قد اختصه خالقه بهذه المزية من دون سائر مخلوقاته كما قال [إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال * فأبين أن يحملنها * وأشفقن منها * وحملها الإنسان * إنه كان ظلوماً جهولاً] سورة الأحزاب . مشيراً إلى أن باقي المخلوقات لم يكن وجودها محل الغاية من خلق هذا العالم . فما كانت بقيّة المخلوقات إلا من قبيل أطوار الخلق الغريزية في طباعها وأفعالها . ما عدا الإنسان [إنه كان ظلوماً جهولاً] بما تميّز به من قوتي العقل والإرادة اللّتين أعطيتاه المقدرة على تجاوز هذه الحدود الغريزية . ووضح سبحانه معنى هذين اللفظين في سورة الدهر بقوله [إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإمّا كفوراً] . كما بين لنا سبحانه الأدوات التي وهبها الخالق للإنسان ليتخذ أحد هذين السبيلين بإرادته سبيلاً له في حياته الدنيا . شارحاً هذه الأدوات بأسلوب الاستفهام التقريري [ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين] ؟ سورة البلد ، أي أن خالق الإنسان أعطاه عينين لتمكنانه من رؤية ما حوله . وأعطاه لساناً وشفتين لتمكنانه من التعبّير عمّا في نفسه . وهداه النجدين طريق السمو وطريق الإنحطاط ليسلك أي الطريقين يشاء .

ولفت القرآن الكريم في نظريته العامة هذه . نظر الإنسان إلى تكوين فطرته وما تحمله من صفات طبيعية تتصف بالتوازن والزوجية بقوله [فألهمها فجورها وتقواها] أي جعلها قادرة على انتهاج أيّ من هذين الطريقين طريق الفجور أو طريق التقوى . مضيفاً قوله سبحانه [قد أفلح من زكاها ❋ وقد خاب من دسّاها] سورة الشمس ، بمعنى أن فطرة الإنسان هي محل جميع تطوّراته نحو الأفضل أو نحو الأسواء . نحو الفلاح أو نحو الخيبة والخسران .

هذا وقد سبق أنّي وصلت بالقارىء إلى تعريف الفطرة وما تضمنته من صفات طبيعية ، وذلك من خلال شرحي لنظرية جذور الأخلاق ، التي هي موضوع هذا الكتاب . وبيّنت فيها كيف عمد الله تعالى حين شاء أن يُعرفَ ويستخلِفَ إلى خلق الذّرة وهي على ست قوى فاعلة ، وخلق منها هذا العالم كله بجميع أجرامه ومخلوقاته ، ومن فتيلة واحدة وضمن قوانين التطور والنشوء والإرتقاء . حتى تمّ خلق هذا الإنسان الذي قيل فيه :

وتحسب أنّك جُرْمٌ صغير　　وفيك انطوى العالم الأكبرُ

هذا الإنسان الذي أهلّه خالقه ليكون خليفته في الأرض وضمن هذا الكون اللانهائي ، جاعلاً من حياة الإنسان في دنياه مرحلة من مراحل التطور والإرتقاء أيضاً ، ليطورّه بإتجاه حياة الخلود ليتمّ بواسطة خلوده عناصر الاستخلاف الضروري توفرّها في شخص المُسْتخلَفْ . جاعلاً سبحانه جذور هذا الخلود في حياته الدنيا هذه . وإني بصدد تأليف كتاب سميته « نظرية جذور الآخرة » ، ولعل الله يوفقني إلى استكمال مادته ونشره إن شاء .

إن هذه النظرية العامة المكتملة الجوانب ، والمتعلقة بالمقصد من خلق الإنسان ، وهي على صورتها التي بيّنتُها والتي جاءت الاكتشافات العلمية مؤيدة لمضمونها ومحتوياتها ، والتي حملها لنا الوحي القرآني ، لتكشف مدى عجز العقل وقصر إدراكه دون مساعدة هذا العامل السماوي . وإن هذا الأمر نفسه هو دليل في حد ذاته على كون الإنسان مخلوقاً وأنه مخلوق لتحقيق هدف معين ومقصود . ثم

إن تطابق النظرية القرآنية العامة هذه مع تركيبة الإنسان نفسه هو دليل آخر على أن الخالق ، هو مشخّص المرض ، وواصف الدّواء وهو واحد في جميع هذه الأمور . فهو الإله الأحد الذي لا شريك له في الملك وهو العليم الحكيم .

من هذا كله يتبينّ أن الإنسان إنما هو مُصوّر مُصغّر لهذا العالم . من هنا ، اعتبر هذا الإنسان محور هذا الكون . وكان جميع ما في هذا الكون مسخّراً لخدمته . وتفرّد بهذه المزّية حتى كادت تؤلّهه لأنه أصبح مرآة الألوهية والوحدانية التي تجلّت في خلقه وأخلاقه وهذا ما أُشير إليه في قوله تعالى [ليعبدون] وفي هذا اللفظ منتهى التكريم للإنسان . إذ أنّ من لا يتخلّق بأخلاق سيده ، ولا ينصبغ بصبغته ، لا يصحّ أن يكون تابعاً لسيده ومتشرفاً بمعيته ومكالمته . ويعترض بعضهم على نظرية تسخير هذا العالم لمصلحة الإنسان بالقول:إن الإنسان كما نلاحظ ، هو نفسه عرضة للتأثّر بالأمراض والكهرباء والأعاصير والأمطار والزلازل ، فكيف يصحّ القول ، والحال هذه ، إن كل شيء مسخّر لخدمة الإنسان ؟ وأجيب عن هذا الأعتراض هنا بإيجاز فأقول : إن التأثر هو شيء والسيطرة هي شيء آخر . فالحاكم على سبيل المثال ، لا ينتقص حاكميّته تأثره بجميع هذه العوامل . كما أن ضحايا جيش منتصر ، لا تقلل من قيمة انتصاره . أضف إلى هذا وذاك أن الخطوط البيانية للإحصاءات تشير إلى تراجع في تأثيرات العوامل المذكورة ، بقدر ما يبلغه الإنسان من تقدّم علمي . وهذا يؤكد أن الإنسان في طريقه لتسخير كل شيء في هذا العالم من حوله . هذا بفرض أنه يظل حاثّاً خطاه نَحو هذا الهدف على طريق من الرصانة العلمية والأخلاق الفاضلة ، والروحانية السّليمة .

وبإمكاننا تلخيص هذا الباب بالقول إن الإنسان لا يتحرّك إلاّ بنيّة ولتحقيق هدف معين في ذاكرته . فمن لا يكون كذلك لا نسميه إنساناً عاقلاً . لذا كان على الإنسان أن يرى لحياته مقصداً أسمى يحث الخُطا لتحقيقه . وإن لم يفعل ذلك ظل يراوده شعور بفراغ دائم طوال حياته كأنه ريشة في مهبّ الريح .

كما رأينا أن العقل وحده لا يكفي لرسم هذا المقصد في حياتنا . إذ لو أمكننا ذلك لما اختلف الفلاسفة والمفكرون في هذا الموضع نفسه على مدى التاريخ . وقد علمنا أن العقل هو مجرد جهاز وعضو لا يعمل عملاً مُنتجاً إلا بمساعدة عوامل ثلاثة . والوحي السّماوي يشكل أحد هذه العوامل المساعدة على مستوى الغيبيات وما وراء الطبيعيات .

وإن الدليل الذي اتخذناه بطريق العقل المجرد ، في موضوع تحديد المقصد من خلقنا ، عن طريق الإستقراء العلمي ، لم يقطع حتى نزل الوحي السماوي وما انطوى عليه من معلومات . ذلك لأن العقل لا يستطيع إعطاءنا أكثر من هذا الدليل وهو أن الإنسان مفطور على البحث ومولع بالتفتيش عن الحقيقة وشغوف بكشف واستكناه أسرار هذه العالم من حوله لماذا وجد ؟ وكيف ؟ وإلى أي هدف منشود ؟ .

وأدركنا كيف ساعد الوحي السماوي ، وقد نزل مسلحاً بالأدلة القاطعة على صدق مضامينه ، كيف ساعد العقل فدلّه على خالقه وما يحمله من صفات عظية ، وأخبره أنه خلقه مُعدّاً من حيث جبلته الباطنية ، وبما يحمله من قوة عاقلة وإرادة ، خلقه ليكون صورة مصغّرة عن صفاته ، وذلك ليتخلق بهذه الصفات ويصطبغ بصفتها . ليصبح بهذه الوسيلة عبداً على مستوى مالكه فيتشرف بقربه ويحصل بصلاته السنيّة وآلائه السابغة ، وإلى هذا المقصد نزل قوله تعالى [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون] ولبيان معنى هذه العبودية نزل قوله تعالى [هو الذي جعلكم خلائف في الأرض] ومحذراً من مغبّة البعد عن هذه العبودية بالقول [فمن كفر (بهذا المقصد) فعليه كفره] أي أن نسيان وإهمال هذا المقصد من الحياة له نتائجه الوخيمة التي ترتّد على صاحبها . ولخص سبحانه هذه النتائج الوبيلة بقوله [ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلاّ مقتاً * ولا يزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً] بمعنى أن الخسارة العظمى من وراء إغفال هذا المقصد والإعراض عن العبودية هذه أن يصبح هذا المكذّب محلّ مقت ربه وفي هذا منتهى الخسران ، والمقت لغة هو أشد البغض المتأتي عن أمر قبيح من فاعله .

لقد أعلن هذا المقصد من خلق الإنسان ورفع شعاره جميع الذين بعثهم الله تعالى من أنبياء ومرسلين ودون استثناء كما جاء في سورة النحل ٣٦ : [ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله . . . .] . وقال تعالى من جهة أخرى : [وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين] الأنبياء . كما قال : [أفحسبتم أنّما خلقناكم عبَثاً] ؟ المؤمن . وحدد سبحانه وتعالى سمة هذه العبادة المطلوبة بقوله في سورة البقرة : [صبغة الله * ومن أحسن من الله صبغة * ونحن له عابدون] . ونصب سبحانه وتعالى كلمه (صبغة) إغراء لنا وحثّاً على ضرورة التلّون بلونها . على أن مثل هذه الخطوة ستكون أسعد خطوة نخطوها في حياتنا وهذا معنى [ومن أحسن من الله صبغة] ؟ فهي تجسيد للكمال الذي تتوق إليه نفس الإنسان .

ورغبة في أن يزيدنا سبحانه وتعالى قناعة بصحة هذا المقصد من حياتنا ، نبهنا إلى فطرتنا وجبلتنا الباطنية ، وكيف خُلقت متّصفة بالزوجية والتضاد في كل قوة من قواها ـ وهذا الأمر سبق بيانه ـ فنبهنا سبحانه وتعالى إلى أن هذه الفطرة وهذه الجبلة الباطنة على صورتها تلك تشكل في حقيقة أمرها أرضية تحقيق معنى العبودية المطلوبة من الإنسان . وما أعطي الإنسان العقل والإرادة إلّا ليدرك هذه الحقيقة يسعى إلى تنمية قواه الخيّرة المعطاء ، ولإماتة واجتثاث نوازعه الشريرة . وبهذه الطريقة وعلى هذه الصورة يسير على طريق الفوز والفلاح . فإن لم يفعل ذلك يُمنى بالخيبة والخسران . وإلى هذا كله أشار سبحانه بقوله تعالى : [ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها] الشمس . وهكذا يكون سبحانه وتعالى قد طرح قضية تطابق فطرة الإنسان وجبلته الباطنة مع ما نزل به الوحي السماوي من نظرية في موضوع الهدف من خلق هذا الإنسان ، أقول طرح هذا التطابق كدليل قاطع على كون الخالق ، ومشخّص المرض ، وواصف الدّواء هو واحداً لا شريك له في جميع هذه الأحوال .

*** *** ***

تعريف الأخلاق الفاضلة

وبعدما انتهجنا النهج العقلاني السليم ، وأدركنا المقصد الأسمى لحياتنا بفضل الوحي السماوي الذي يشكل عاملاً مساعداً للعقل على مستوى إدراك ما وراء الحواس . وبعد أن أقنعنا الوحي هذا بمعالم المقصد لحياتنا اليومية ، نكون قد حصلنا على مُعطيات كافية تساعدنا على وضع تعريف صحيح وكامل لما سمّيناه بالأخلاق العظيمة أو الأخلاق الفاضلة . تلك الأخلاق التي توّجب علينا تطوير سلوكنا ، الصادر عن صفاتنا الطبيعية التي نحملها بالفطرة ، وذلك بإتجاه الإصطباغ بصبغة الأخلاق الفاضلة المذكورة ، فما هو هذا التعريف ، وكيف نتوّصل إليه ؟ .

إننا إذ عرّفنا الخلق ، بضم الخاء أنه الصفات الصحيحة للإنسان وهذه الصفات التي تصدر عنها أفعاله عن نيّة وفكر وروّية مع قدرته على الإقدام والإحجام . وإننا إذ قلنا إن الخُلق يختلف عن الخُلق الفاضل أو الخلق العظيم الذي يطالبنا القرآن الكريم بالتخلّق به ، والذي جعل نبيه المصطفى محمداً ﷺ قدوة نأتم بهديها ونجري على منهاجها ، نجد أنفسنا مضطرين لوضع تعريف للخلق الفاضل يساعدنا على تبينّ الفرق ما بين الخُلُقين . وحتى يكون اقتباسنا أو استمساكنا بالأخلاق الفاضلة عن فهم وإدراك ووعي كاملين .

وما أغفل كتاب الله القرآن التنبيه إلى العناصر المطلوب توفرّها في السلوك الأخلاقي لاكتساب لقب الخلق الفاضل . بل ذكر هذه العناصر وعدّدها ولفت أنظارنا نحوها . وكان في هذا أحد أبرز معالم كمال القرآن المجيد . وأحد أعظم الأدلة على كونه كتاباً منزلاً من رب العالمين . فما هي عناصر الخلق الفاضل هذه

العناصر تساعدنا على صوغ تعريف أقرب إلى الكمال . للخلق القرآني الفاضل ؟ .

وقبل الشروع في الإجابة عن هذا السؤال ، أُقرب لقارئي العزيز مثالاً يفيدنا بتكراره ، عند شرح كل عنصر من عناصر الخلق الفاضل،فيجلو لنا الفرق في السلوك في المثال الواحد .

تصوّروا أن امرأة مرت بجانبها سيارة مسرعة فصدمت ابنها الممسك بيدها ، وداسته ، وتركته جثة هامدة لا حراك فيه . إن أول ما تفعله هذه الإمرأة هو البكاء والعويل والصياح . وحالها هذه لا يخرج عن كونه ظاهرة خلق وصفات طبيعية جدّاً . إذ بين الأم ووليدها واشجة عاطفية رافقت ولادتها إيّاه . فهو فلذة كبدها . ويعد استرسالها في البكاء على فقده واستسلامها للعَبرَة تعبيراً فطرياً ، غير متصنع ، ما دامت قادرة على البكاء ، ولا يواجهها شيء يخيفها ، ويحول بينها وبين إظهار ألمها الشديد على مصير ابنها .

والذي يشاهد منّا مثل هذه الإمرأة وهي في هذا المصاب وهذا الموقف ، لا يتردّد أن يقول في نفسه ما أرقّ فؤاد هذه الإمرأة . أما إذا لاحظناها تتجلّد فتجمد عينها فلا تذرف دموعها . يدفعنا هذا لنقول في أنفسنا ما أقسى فؤاد هذه الإمرأة . أو أنها امرأة غير طبيعية . من هذا كله ندرك بأن الناحية الخلقية في هذا المثال تنحصر في رقة الفؤاد أو قساوته بالمفهوم الطبيعي .

ويتدخل التعليم السماوي في هذا الأمر يُجري تعديلاً على هذه الصفات الطبيعية أو الأخلاق الطبيعية . فيعلّم الإنسان الصبّر وضبط النفس والإيمان بقضاء الله وقدره ، ليؤثر في السلوك الطبيعي ، فيتحول الخلق الطبيعي خلقاً فاضلاً وعظيماً . فهذه إحدى حكم قوله تعالى [فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل] الأحقاف ٣٥ ، وقد جعل الأسوة المحمدية موضحّة لهذا الدرس الأخلاقي العظيم على المستوى العملي . إذ نعلم جميعنا حال رسول الله ﷺ عندما فقد ابنه إبراهيم الذي كان صغير السّن فهو لم يذرف عليه إلاّ قطرات معدوات من

الدّمع ، ولم يُطل حزنه عليه ، وصبر على فراقه راضياً بقضاء الله وقدره . وأثبت بذلك أنه على خلق عظيم . لأنه سيطر على رقّة فؤاده بحيث لم يدعه يطفو على السّطح بظواهره الطبيعية المعروفة ، بل بظواهر مُعدّلة مُوّجهة ، كما يفعل المرء مع مياه الطوفان أو السّيل المدمرة . يضع لها سدوداً ومساراً ليستفيد منها في السقاية للأراضي درءاً لإتلاف محاصيلها . ففي محاولة الصبر على الشدائد ، تنميه لقوة الصبر والاحتمال عند الإنسان . وفي الرضا بقضاء الله وقدره تنمية لروح الإستسلام بربوبية الله رب العالمين .

وهكذا يمكننا القول إن على الإمرأة في مثالنا المذكور الإمتناع عن الصياح والعويل والبكاء المفرط ، والتمسك بأهداب الصبر والرّضا بما أصيبت به من مصاب . إندفاعاً من إيمانها بضرورة الظهور بهذا المظهر على أنه موقف إيماني . ودونما إكراه من أحد . فإن وقفت هذا الموقف الأخلاقي المُعدّل بتصميم إرادي . تكون قد ظهرت بمظهر الخلق الفاضل العظيم .

وعنصر الإرادة ضروري في هذا المثال وهام جدّاً ، ذلك لأن الخلق الفاضل يتطلب وجود هذا العنصر . لأن الرجل المخصيّ إذا تعفّف لا يسمى عفيفاً . والرجل الأعمى إذا أعرض بوجهه عن المُحرّمات لا يعدّ غاضّاً لبصره . وهكذا الرجل العاقر ، إذا لم يتزوج ، لا يسمى راهباً . ومن ثم يتجلى لنا أهمية عنصر الإرادة المتعلّق بقوة الإقدام والإحجام .

إذا استوفت الإمرأة المذكورة جميع ما يتطلبه الخلق الفاضل من عناصر دون أن تُقرِن ما تقوم به بنيّة التخلق بالخلق الفاضل إرضاء لخالقها ، فلا يُسمى حالتها خلقاً فاضلاً . وذلك لقول رسول الله ﷺ (إنما الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى . . . .] بخاري. هذا بإعتبار الخلق الفاضل سلوكاً وسُلماً للتقرّب من الله عزّ وجل . ولا يتحقّق القرب الإلهي إلا بإجتماع طرفي المحبة نيّة العبد وإرادة المعبود ومشيئته .

ونضيف عنصراً آخر إلى النيّة ، وهو عنصر السّعي للتخلّق بأخلاق الله تعالى . أي بمراعاة محاولة التشبّه بأسمائه الحسنى . هذا الموضوع الذي سبق أن بحثته عند شرح معنى العبودية لله تعالى . فالخلق الفاضل يتطلب توفر هذا العنصر أيضاً . فمن لا يحاول التخلّق بأخلاق الله عز وجل من عباد الله ، لا يكون سلوكه داخلاً في مفهوم الخلق الفاضل من وجهة نظر الدين الإسلامي . وهكذا على الإمرأة موضوع مثالنا أن يتوفر في مسلكها عنصر التسامح والعفو والرأفة بمن صدر عنه الخطأ . ذلك لأن الله تعالى يتصف بالرأفة والعفو والكرم فهو كريم ورؤوف رحيم وغفور أيضاً .

ونلخّص كل ما ذكرناه حول عناصر الخلق الفاضل بقولنا إنه يتطلب من المرء أن يتوفر في سلوكه العناصر التالية : الأول عنصر العقل . والثاني عنصر الإرادة . والثالث عنصر الفكر الشرعي . والرابع عنصر الإستقلالية . والخامس عنصر النيّة . والسادس عنصر التخلق بأسماء الله الحسنى .

واستناداً إلى العناصر المذكورة توصلت إلى التعريف التالي للخلق الفاضل . إنه (أفعال الإنسان الصادرة عنه ، بداعٍ من صفاته الطبيعيّة ، والمصقولة بهداية العقل والشريعة ، وبما لا يخالف أسماء الله الحسنى ، وبنيّة التقرّب من الله تعالى ، وفي حالة يكون الإنسان فيها قادراً على الإقدام والإحجام ، بإرادة حرّة غير معرّض لأي إكراه من أيّ جهة كانت) .

هذا هو التعريف الأمثل في نظري للخلق الفاضل . والذي يحوي جميع العناصر التي يتطلب توفرها في السلوك الإنساني من وجهة نظر الوحي السماوي المتمثل لكتاب الله القرآن الكريم . السلوك الممتدّة جذوره حتى ذرة المادة في أبسط أشكالها . السلوك الذي يبتغي إلى الخالق سبيلاً للتشرّف بقربه ولقائه . السلوك الذي اعتبرت الأسوة المحمدية النهاية العظمى لوجهه المُشرق الوضّاء .

*** *** ***

أثر الأسوة العملية
في تكوين الأخلاق الفاضلة

من مظاهر كمال الدين الإسلامي ، أنه لم يقف عند حدّ تقديم تعليمٍ كاملٍ مؤيدٍ بالحجج والبراهين وضرب الأمثال وبالأسلوب العلمي . بل تجاوز ذلك إلى تقديم أنموذج حيّ مجسمّ لهذا التعليم الكامل وقد سمّاه « الأسوة الحسنة » . حيث قال تعالى [لقد كان لكم في رسول الله أسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً] الأحزاب ٢١ .

وتقوم حكمة « الأسوة الحسنة » على أن الفلسفة والكلام المجرّد عن العمل ، وإن كان له دورٌ بارزٌ في التأثير على عقول الناس ، فإنّه قلّما امتدّ أثره إلى عواطفهم على حين تقوم « الأسوة الحسنة » بدور التأثير المباشر والحقيقي على عواطف الناس . وهذه حقيقة بإمكان كلّ إنسان تلمُّسها في نفسه . فمواقف الشجاعة تشجع الناس على التضحية والإقدام . ومواقف الكرم تدفع الناس للسخاء والجود .

والإسلام الذي جاء يوجهنا إلى وجود خالقنا . ويوضح لنا الغاية من خلقنا . ويبين لنا أن تحقيق هذه الغاية يقتضي منا صبغ سلوكنا بصبغة الأخلاق الفاضلة . لم يكتف الإسلام بالشرح ووسيلة الإقناع . بل نبهّنا أيضاً إلى أن الله تعالى بعث محمداً بن عبد الله ﷺ « أسوة حسنة » لنا في مجال فهم تعاليم الإسلام وإلباسها لباسها العملي . والغاية من هذه الأسوة الحسنة تحريك عواطفنا قبل كل شيء

ودفعاً لنا للسيّر على هذا الطريق المستقيم . طريق الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وإليكم وجهاً من وجوه الأسوة المحمدية الحسنة التي تُعتبر جزءاً لا يتجزّأ من الدعوة الإسلامية عسى أن يساعد القارىء العزيز على فهم قيمة الأسوة الحسنة وأهميتها وشأنها ودورها الذي خلفته في ترسيخ أركان الدعوة الإسلامية في نفوس الأميين في صدر الأسلام .

فمن المعلوم أن لكل أمة تاريخاً متميّزاً يختص بها . والعرب من هذه الأمم التي امتازت بأنّها لا تُجمع على منح أحد أفرادها لقباً متميّزاً بسهولة ويُسر فإذا منحت ، فإنها تمنح بعد توفرّ شروط قاسية جدّاً .

فكم ظهر بين ظهراني العرب من شعراء . ومع ذلك فلم تُجمع الأمة على لقب مخصوص بشاعر معينّ على أنه يجسّم الشعر في شخصه . وكم ظهر بين العرب من فرسان . ومع ذلك فلم تجمع الأمة العربية على اعتبار أحدهم مثال الفروسية المجسّمة .

كان هذا على مستوى الشعر والفروسية . فكيف يمكن أن تمنح الأمة العربية أحد أفرادها لقباً متميّزاً على مستوى الأخلاق ؟ فالمعروف والشائع بين الناس أنه ليس ثمة إنسان بلا وزر أو خطيئة . بسبب أن الإنسان يمّر يومياً بعشرات الإبتلاءات عند كل خطوة يخطوها في حياته . ولا يُتصوّر إنسان يمكن أن يتجاوز هذه الإبتلاءات بلا وزر أو خطيئة .

ثم أنكم تسمعون بتضحية مئات بل ألوف من الجنود بأنفسهم في ساحات الوغى دفاعاً عن أوطانهم . ورغماً عن ذلك فلا يُمنح كل شهيد منهم وساماً . وتسمعون بأسماء عشرات العلماء المُبْرّزين في كل دولة من دُول العالم . ومع ذلك فلا تمنح دولهم كلاًّ منهم وساماً . ويدلكُم هذا كله على أن مجرد صدق الإنسان وأمانته في تعامله مع بني نوعه لا تكفي لبيان عظمة شخصيته ، ولا تستدعي منحه

لقب الصادق الأمين . إذ لابد أن يقترن صدق هذا الإنسان وأمانته بإمتياز خاص يميّزه عمن سواه من هذه الفئة من الناس حتى يتفرد هذا بلقب الصادق الأمين .

وقد علمتم أن الأمة العربية قد منحت محمداً رسول الله ﷺ ، من قبل أن يؤتي رسالة الإسلام ، ورغماً عن فقره ويُتمه ، لقب « الصادق الأمين » . فإذا أضفنا إلى هذا أن قروناً عديدة مضت من قبل ذلك ولم تمنح الأمة العربية خلالها هذا اللقب لأي فرد من أفرادها . نصل إلى أن محمداً رسول الله ﷺ كان في صدقه وأمانته منقطع النظير ومتميّزاً على بني قومه جميعهم . وبألفاظ أخرى فإن الله تعالى اصطفى لحمل رسالة الإسلام إنساناً كاملاً في صدقه وأمانته ليمثل « الأسوة الحسنة » المطلوبة على مستوى الأخلاق الفاضلة التي تطالبنا تعاليم الإسلام بالإصطباغ بصبغتها عملياً .

❋ ❋ ❋

الأخلاق الفاضلة تتّصف بالمرونة
لا الجمـــود

يواجهنا سؤال جوهري : ما دامت الأسوة المحمدية منقطعة النظير ، فأنّى للناس أن يبلغوا مستواها ، وإذا جهد هؤلاء وبذلوا الطاقة ، فلم يبلغوا المستوى العملي لهذه الأسوة أوَلاَ يُعدُّ خُلُقُهم خُلقاً فاضلاً أو عظيماً ؟ .

وفي نظري أن جواب هذا السؤال يكمن في موضوع المرونة التي تتّسم بها التعاليم الإسلامية . ذلك أن جميع أوامر الدين الإسلامي إنّما جاءت على صورة نهايات عظمى ودونها درجات بالنظر لعوامل عديدة تواجه كل إنسان عند التطبيق . وأن جميع أصحاب هذه الدرجات تدخل تصرفاتهم وسلوكيتهم في باب الأخلاق الفاضلة .

وقد لفتت نظرنا إلى هذه الحقيقة سورة الفاتحة التي تعتبر خلاصة لتعاليم الإسلام . فقد علّمنا سبحانه وتعالى أن ندعو في كل ركعة يومياً [اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم * ولا الضالين] . وبالعودة إلى كتاب الله القرآن الكريم نجد تفسير زمرة « المنعم عليهم » الذين منّ الله تعالى عليهم بالأخلاق الفاضلة . وعصمهم من أن يسلكوا نهج الإفراط أو التفريط فيصبحوا في زمرة المغضوب عليهم والضّالين . نجد تفسير الذين أنعم الله عليهم أصحاب الأخلاق الفاضلة في سورة النساء عند قوله تعالى [. . . وإذاً لآتيناهم من لدُنّا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً * ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيينً والصديقين

والشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً] . وإنّ قوله تعالى هنا [ولهديناهم صراطاً مستقيماً] هو مضمون دعاء [اهدنا الصراط المستقيم] والذي هو صراط الأخلاق الفاضلة المطلوبة . وقد وضح سبحانه وتعالى لنا أنّ أصحاب الصراط المستقيم الذين اتصفوا بالأخلاق الفاضلة المطلوبة ليسوا زمرة واحدة . ولا هم على درجة واحدة من السلوك عند التطبيق ، بل هم أربع زمر من المؤمنين يتفاوتون في درجات قربهم من الله ربّهم على قدر تفاوتهم في تطبيق أوامر ربهم المُنزلة إليهم . وهذا التفاوت الحاصل بينهم ليس مرجعه العصيان والتمرّد في بعض نواحي حياتهم . بل مرجعه أسس المرونة في تعاليم ربّهم من جهة ، ومحدودية قُدُراتهم من جهة التطبيق . وإلاّ فإن جميع أصحاب هذه الدرجات الروحية يستوون في الإيمان ومحاولة صَبغ سلوكهم بصبغة العمل الصالح وبنيّة التقرّب من خالقهم ونيل قربه ورضاه .

على هذا الأساس من الفهم ندرك أن الأسوة المحمدية الحسنة إنما تشكل النهاية العظمى للتعاليم الإسلامية على مستوى التطبيق العملي . وهي من حيث كونها منقطعة النّظير تعني أنّ دونها درجات من الأخلاق الفاضلة . بل هناك درجات أدنى منها يقيناً لأن تعاليم الإسلام تتصف بالمرونة من جهة وأن الناس يختلفون في قُدراتهم واستطاعاتهم من جهة أخرى . وأهم شيء يطلبه الإسلام منهم هو الدأب في السّير على صراط القرب الإلهي المستقيم ، واضعين نصب أعينهم بلوغ الأسوة الحسنة المحمدية . وهذا المعنى يتضمنّه الحث على الدعاء في كل ركعة من ركعات الصلوات [اهدنا الصراط المستقيم] .

فالإسلام نزل يحثّنا على التأسيّ بالأسوة الحسنة المحمدية كحدٍّ أقصى للسلوك الفاضل فإذا قصرّنا دون بلوغ هذه الأسوة وذاك المثل الأعظم أو النهايات العظمى ، ليس معنى ذلك أننا لسنا وفي نظر الله تعالى أناساً فاضلين . لا بل إن الله تعالى لا يكلّف نفساً إلا وسُعها . والمؤمن يعمل حسب طاقته والإمكانات المُتاحة له زمانياً ومكانياً ، بدأبٍ في هذا السبيل فلا يكلّ ولا يمّل فهو إن لم يبلغ مرتبة النبيين من حيث التطبيق . فقد يبلغ مرتبة الصدّيقين . وهو إن عجز عن

بلوغ مرتبة الصديقين من حيث التطبيق . فقد يبلغ مرتبة الشهداء . وهو إن عجز عن بلوغ مرتبة الشهداء من حيث التطبيق . فقد يبلغ مرتبة الصالحين . وهي أدنى مرتبات ودرجات القرب الإلهي .

وأقف قليلاً عند لفظ الصالحين . إذ هو لفظ يتكرر استعماله كثيراً في القرآن المجيد ، ولابد من أن يكون واضح المعالم ظاهر الرسّوم بالنسبة لما يحمله من معنى من الوجهة اللغوية .

الصّالحون مفردها صالح . والصالح في نظر العامة هو الإنسان التّقي الذي يقوم بما عليه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد . أقول إن هذا لمعنىً سطحي الدلالة ، لا يصل إلى العمق المعنوي الذي نزل به وحي القرآن الكريم .

لا نشك أن الصلاح هو ضد الفساد . وصَلَحَ معناه لزم الصلاح . لكن لفظ الصلاح له دلالة أعمق وهي الأهلية . فالصالح أصلاً هو الشيء المؤهلْ لكذا . والإنسان الصالح هو الإنسان الذي تتوفر في عمله الأهلية والصلاحية قبل كل شيء . والصلاحية تستدعي من المرء أخذ الزمان والمكان بعين الإعتبار عند كل خطوة يخطوها وعمل يقوم به . وندرك من هذا أن الإنسان الصالح هو الإنسان الذي يراعي عاملي الزمان والمكان عند تأديته لحقوق الله تعالى وحقوق العباد . ولا يُعتبر هذا الإنسان رجلاً صالحاً لمجرد قيامه بهذه الحقوق دون هذا الإعتبار .

نحن نعلم أن من حقوق الله تعالى علينا أداء الصلاة في أوقاتها ، فلو أننا فرضنا أن العدو باغتنا بهجوم مفاجىء . في وقت وَجبت علينا صلاة العصر مثلاً . فهل نقف لأداء صلاة العصر أم نهبّ من فورنا لمقاومة العدوان ؟ هنا يتدخّل مفهوم الصلاحية والأهلية . فلابد من مراعاة الزمان والمكان .

وتتحدد أفضلية الشيء حسب أهميته زماناً ومكاناً . وهكذا فإن الذي يقوم لأداء الصلاة في المثال الذي افترضناه ، ويدع العدو يجتاح بلاده ، لا يعد صالحاً ولا تعد صلاته صالحة ولا يدخل في زمرة المصلين . وإلى هذا المعنى العميق أشار الله تعالى بقوله [الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . .] . ذلك أن الصالحات في

عُرف القرآن الكريم هي الأفعال الصادرة عن المرء متجنباً فيها الفساد في الأرض ومؤدياً بواسطتها حقوق الله تعالى وحقوق عباده ، ومراعياً عند القيام بها الضرورتين الزمانية والمكانية .

ونخلص من هذا إلى القول إن مرتبة الصالحين تعني المؤمنين السّاعين في أفعالهم لكسب رضا ربّهم ونيل قُربه وذلك بأدائهم لحقوق ربهم وحقوق عباده متجنبينّ الفساد ، آخذين بعين الأعتبار عامليّ الزمان والمكان وعلى أبسط درجات السلوك التطبيقي .

ولست هنا بصدد البحث في موضوع المرونة التي تمتاز بها التعاليم الإسلامية لأضطرّ أن أفرد لها فصلاً خاصاً بها في هذا المقام . وأكتفي ، إضافة لما استنبطته من سورة الفاتحة ، لغت أنظار قارئي العزيز إلى قوله تعالى [فاتّقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم] وإلى قوله تعالى [لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها] وإلى دعاء [ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا] وما إلى ذلك من الآيات القرآنية الكريمة الدّالة على مرونة أحكام التعاليم الإسلامية من حيث التطبيق .

وبالإمكان التنبيه إلى أن الله تعالى عندما قال [فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية * وأما من خفّت موازينه فأمّه هاوية] يكون سبحانه وتعالى قد وضع حدّاً أدنى للتفريق ما بين الرجل الفاضل والرجل غير الفاضل . بمعنى أن من زادت أعماله الصالحة على أعماله الطّالحة ، فهو داخل في مفهوم « المُنعم عليهم » والفاضلين من بني نوع الإنسان . وهذا الأمر فيه الدّلالة ، كل الدلالة ، على ما في تعاليم الإسلام من مرونة واضحة المعالم . وهذه المرونة تنبهنا إلى أن تعاليم الإسلام من حيث أوامره ونواهيه لم تكن مقصودة بذاتها . بل إنما جاءت كوسائل ورياضات على طريق تحصيل القرب الإلهي ليس إلاّ . ويمكن فهم ذلك بالنظر إلى حال التلميذ في مدرسته . فهو يُطلب إليه خلال امتحانه الإجابة على عشرة أسئلة مثلاً ، ويُعدّ ناجحاً إذا هو أجاب على نصفها مثلاً ، وينجو بذلك من عقوبة الرّسوب في الإمتحان . ذلك أن الإجابة عن الأسئلة جميعها هي النهاية العُظمى

المطلوبة منه . وإن نيله لنصف العلامة المطلوبة ونجاحه يفسّر المرونة التي يتضمنّها الإمتحان . وإن ما بين علامة الخمسين ، وما بين العلامة القصوى درجات للفوز في هذا الإمتحان . وهذا كله يقتضي أن تظل نيّة التلميذ معقودة على طلب الفوز في الإمتحان . كما هو الحال على مستوى الدّين . فالصلاّح وعمل الصالحات يقتضي توفرّ عنصر النيّة دوماً والسعي لكسب رضاء الله وقربه على الدوام .

ونخلص من جميع ما ذكرناه إلى القول إن الإسلام امتاز بتقديم « الأسوة الحسنة » برفقة ما جاء به من تعاليم سماوية لا ليؤثر في فكر الإنسان وحسب . بل ليؤثر في عواطفه بصورة مباشرة أيضاً . وحينما جاء بهذه الأسوة الحسنة المحمدية إنما جاء بها كنهاية عظمى لوضع تعاليم الإسلام موضع التطبيق . وليس كحدّ أدنى لهذا التطبيق . بل جعل درجة الصلاّح والصالحية هي الدرجة والحدّ الأدنى لهذا التطبيق . وجعل ما بين الحدّ الأدنى المذكور والنهاية العظمى المذكورة درجات في سُلّم كسب رضا الله تعالىٰ ونيل قربه ووصاله .

***

نظرية جذور الأخلاق
ونتائجها المنظورة

إن لكل نظرية ، إن صحّت ، نتائج تترتب عليها . وإن لنظرية جذور الأخلاق نتائجها الهامة لأنها تمثل حقيقة من الحقائق الكونية .

وأول هذه النتائج هو ما تحدثه في الترتيب الموضوعي لعلم الأخلاق . فالمعلوم أن العلماء يصنّفون موضوع الأخلاق عادة في سُلّم المواضيع الفلسفية . ذلك لأنهم ما كانوا يلحظون من الأخلاق إلا ظواهرها . أما وقد اتضح ماالجذور الأخلاق من عمق مادي يصل حتى الذرة المادية في أبسط أشكالها المعروفة ، أمّا وقد عرفنا بأن الأخلاق أساسها القوى السّتّ البدائية التي تحملها الذرة ، أمّا وقد توصلنا إلى هذه الحقيقة بوسيلة ما دلتنا عليه نظرية جذور الأخلاق ، فقد تحتّم علينا بعد اليوم الإمتناع عن تصنيف علم الأخلاق في سُلّم الفلسفات ، واللجوء إلى تصنيفه من حيث جذوره في سُلّم العلوم المادية من فيزياء وكيمياء وسواها .

وثانية هذه النتائج للنظرية هي ضرورة إحداث تبديل جذري في نظرة الإنسان إلى موضوع الأخلاق . فالملاحظ أن التقدم الهائل في مضمار علم الذرة والاكتشافات والاختراعات المادية ، طغت على تفكير أغلبية الناس بحيث عادوا يعتبرون مجرد البحث في الأخلاق عبث لا طائل تحته ، بإعتبار الأخلاق موضوعاً فلسفياً بحتاً . وكان لهذا الإتجاه العام أثره الرهيب على سلوكيه الإنسان بشكل عام .

لكننا ، وقد تبين لنا أن الأخلاق هي جزء لا يتجزّأ من المادة . بل هي العنصر الأساسي فيها . فقد توجب علينا توعية الجيل لإعادة النظر في هذه النظرة السطحية وإعطاء الأخلاق وموضوعها ما له من أهمية حيوية على جميع الصُعُد .

فكما أنه لم تكن للمادة من حياة وتطور لو لا قواها الستّ التي تحملها . فإنه لا حياة ولا تقدم حقيقيين للإنسان والإنسانية دون وضع الأخلاق الطبيعية للفرد موضع النظر ، والإهتداء بهداية الوحي السماوي ، في توجيهها وتطويرها واستعمالها على طريق الأخلاق الفاضلة .

وثالثة هذه النتائج هي اللجوء إلى المادة والمواد ذاتها لمعالجة أخلاق الفرد من بني نوع الإنسان . سواء على الصعيد السلوكي أو على الصعيد الوراثي . وهنا تبرز أهمية الأغذية والأطعمة على المسرح كعامل أساسي في معالجة الأخلاق الطبيعية للإنسان .

وتأثير الأغذية في الأخلاق الطبيعية لا يُعدّ شيئاً جديداً على العلم والعلماء . فقد اكتشف العلماء الشيء الكثير منه حتى الآن . وأن في اكتشافاتهم هذه تأييداً وتأكيداً على صحّة نظرية جذور الأخلاق .

والحق يُقال أن جميع أوامر القرآن المجيد في موضوع الأغذية من تحريم وتحليل ، تقوم فلسفته أصلاً على أساس أن الأخلاق الطبيعية للإنسان أساسها قوى الذرة المادية التي تطورت وتعقدّت وظهرت عند الإنسان على صورة هذه القوى المتضادة والمتوازنة كما شرحت ذلك بين سطور هذا الكتاب .

فالقرآن الكريم انطلق في أحكامه تلك من كون عنصر الغذاء عنصراً فعالاً وأساسياً في تعديل الأخلاق الطبيعية للإنسان وتطويرها . وهذا الأمر تبينت صحّته وسلامته بطريقة الملاحظة والتجربة والاستنتاج العلمية .

وعلى سبيل المثال فإن البدو الرّحل الذين يعيشون على لحوم الجمال وحليبها تطبعّوا بأخلاق الجمال الطبيعية حتى عاد تحمُّل شظف العيش ، وظاهرة الحقد ،

والمحافظة الشديدة على الأعراض والمُفرطة على الكرامة ، عادت هذه الظواهر جميعها ، جزءاً لا يتجزّأ من الحياة البدوية . علماً بأن هذه الصفات يحملها الجمل بصورة طبيعية كما هو معلوم عند علماء الحيوان .

المهم في الأمر هو أن ثالثة النتائج المترتبة على نظرية جذور الأخلاق ، هي الأهتمام بالأغذية والأطعمة بصورة جدّية في مضمار تعديل الأخلاق الطبيعية للإنسان . وهذا يعتبر في حدّ ذاته باباً علمياً واسعاً يحتاج إلى البحث والتخصص وبذل جهود جبارة في هذا المضمار .

ورابعة هذه النتائج المترتبة على نظرية جذور الأخلاق هي ضرورة العودة إلى الهدايات السماوية على اعتبار المادة مخلوقة وهادفة . للإستهداء بتعاليمها للإنتقال إلى مرحلة الأخلاق الفاضلة العظيمة . وعلى اعتبار قصور العقل عن الإدراك اليقيني في مضمار المغيّبات وحاجته إلى عامل مساعد على ذلك وهو عامل الوحي السماوي .

وخامسة نتائج هذه النظرية هي اعتبار الدين الإسلامي وما احتواه القرآن الكريم من حقائق علمية وتعاليم وأحكام ، اعتبار كل هذا آخر مرحلة وحلقة من حلقات الهدايات السماوية التي طورت الإنسان حتى أبلغته المرحلة التي يمّر فيها تحت صفة ربوبية الله الخالق رب العالمين .

* * *

كلمة أخيرة

نظرية جذور الأخلاق ، كما قرأتموها في متن هذا الكتاب ، تلاحظون كيف كشفت لكم عن وجود حقيقة جدليّة تربط ما بين قوى الذّرة المادية وبين قوى الإنسان الطبيعيّة . وكيف بيّنت بكل جلاء أن صفات الإنسان الطبيعية التي يحملها منذ نشأته إنّما هي قوى الذرة المادية متحلّية بحلية جديدة ، وجاءت كذلك بداعي ظاهرة التركيب والتنويع والتلوين الجارية في هذا العالم الفسيح .

وقد وضحّت جدلّية الخُلق هذه لأعيننا الجذور العميقة والغارقة في العُمُق ، جذور أخلاقنا وصفاتنا الطبيعية هذه الصفات التي تبلغ الذرة المادية الأولى التي كانت أساس هذا الكون بأجمعه . وبهذا الكشف مكنتنا من الانتقال خطوة متقدّمة أعظم على طريق إدراك الغاية من خلقنا ، هذه الغاية التي نزل بها وحي السماء كعامل مساعد لجوهرة العقل التي تميّزنا بها عن سوانا من المخلوقات . وللإحاطة بالوسائل التي تمكننا من بلوغ هذه الغاية من خلقنا بخطاً ثابتة ويقينيّة .

وجدلية الخُلق التي احتوتها نظرية جذور الأخلاق هذه وضعت بين أيدينا تعريف الخُلق والخلق الفاضل تعريفاً علمياً وواقعياً . تعريفاً قائماً على منطلق نظرة شاملة ، واستنتاجات علمية تحسم كلّ خلاف وقع فيه العلماء من قبل في هذا المجال . حيث جاء تعريف الخُلق ، وتعريف الخُلق الفاضل على أساس الملاحظة وهو أساس علمي خصوصاً وأنه بُني على مجموعة استنتاجات .

و« الفطرة البشرية » وقد أفدنا فهماً واضحاً عنها حتى الآن ، وأصبحنا من خلال نظرية جذور الأخلاق نملك رؤية واضحة حول هذه الفطرة . مكنتنا من

وضع تعريف محدد لها أيضاً . وبدأناه من خلال مفهوم الفطرة كما عرّفناه ، نفهم الآيات القرآنية الكريمة فهماً أكثر علمية وعقلانية وأقرب إلى الصحّة بمكان . تراءت لنا عظمة الفطرة البشرية التي أبدعها الخالق وكلّها خير وبركة وعطاء . أدركنا من خلال ذلك أن نقص الفرد من الناس يتأتى من سوء استعماله قوى فطرته . وليس بداعي وجود نقص ما في الفطرة نفسها .

ومعلوم أن دائرة علم الأخلاق تدور حول تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان . فالذي يكذب علينا تقول عنه أنه غير مهذب ، ثم إن دائرة تعامل الناس فيما بينهم يواجهها اختلاف الدين واللون والقومية والتهذيب والاختلاف الطبقي ، وسوى ذلك من الفوارق بين الناس . هذه الفوارق التي عملت بفعالّية وراء اختلاف آراء الفلاسفة وعلماء الاجتماع فيما هو أخلاقي من الأعمال وفيما هو غير أخلاقي .

وحتى رجال الأديان اختلفوا في تعريف الأخلاق على اختلاف أديانهم . بسبب بعدهم عن النظرة الموضوعية في هذا المجال . وعلى كل حال وبالرغم من اختلاف جميع من ذكرتهم حول تعريف الأخلاق ، فإنهم لم يختلفوا البتة على أن موضوع الأخلاق يدور حول تعامل الأفراد بعضهم مع بعض .

إن هؤلاء جميعاً ، وقد اختلفوا حول تعريف الأخلاق ، واتفّقوا على حدود دائرة عمله ـ لم يفكر أحد منهم بضرورة التفتيش عن جذور الأخلاق ، ولا عن القوانين الضابطة لها ، ولا عن الجهة التي تملك حق وضع هذه الضوابط .

فلم يفتش أصحاب هذه الإتجاهات جميعهم عن جذور الأخلاق بسبب أنهم لم يتفقوا على أن الإنسان مادة أصلاً . ثم أن الذين أدركوا أنه مادة لم يربطوا بين قواه وقوى الذرة ربطاً جدلياً علمياً . لذلك كله لم يفلح هؤلاء في إيجاد أرضيّة صلبة لموضوع الأخلاق ، وراسخة ليقيموا عليها بناء شامخاً عظيماً .

كما لم يوجه أصحاب هذه الإتجاهات إلى أنفسهم سؤالاً جاداً ، وهو هل يملك الإنسان نفسه حق وضع أسس وضوابط للتعامل الأخلاقي بين الأفراد ؟وعلى أي أساس يثبت وجود هذا الحق أو عدم وجوده ؟ .

وبصورة عامة ، إذا كان الإنسان هادفاً ليكون إنساناً كاملاً وفاضلاً . فإنّ عليه أن يعلم بأنه لا يواجه على هذا الطريق علاقته بأخيه الإنسان وحده . بل يواجه علاقته بالمجتمع كنظام وقانون . إلى جانب علاقته ببقية مخلوقات الله عز وجل كالحيوانات والنباتات والجمادات ، فهو لابد أن يعلم علماً يقينياً ما يجب عليه فعله ، وما يجب عليه الإحجام عنه في جميع هذه المجالات . مع مراعاته لإختلاف الظروف والأحوال المتبدّلة الحاملة في طياتها شيئاً جديداً على الدوام .

على ضوء هذه التساؤلات المهمّة والجادة ، تكتسب جدلية نظرية جذور الأخلاق صدقها وشأنها الرفيع . فهي التي تضع بين أيدينا أرضية صلبة لبحوث الأخلاق . وعلى صورة تحسم الإختلاف الواقع في تعاريفها .

إنني بينت أن الأخلاق مفردها خُلُق بضم الخاء . وما دلالة هذا اللفظ في اللغة العربية إلا تعبير عن جبلة الإنسان الباطنة أي ما يحمله من صفات طبيعية ، لهذا فلا داعي للإختلاف في تعريف الخُلق أو الأخلاق . إن أرضية هذه الصفات الطبيعية واحدة عند الناس جميعهم مهما اختلفوا في اللون أو الجنس أو الدين أو الوطن .

وعليه ، فإن الذي يستدعي منّا البحث والتعريف إنما هو الخلق الفاضل ، وليس الخُلق مجرّداً . بسبب أن الخُلق كما بينت يعني الجبلة والصفة ولا يعني شيئاً آخر . فما ينبغي بحثه وتعريفه ، هو كيف تُلبس صفة الإنسان الطبيعية ثوباً فاضلاً على المستوى العملي . الإنسان يملك صفتي الشجاعة والجبن . وهاتان صفتان طبيعتان عنده . والذي يحتاج إليه الإنسان هو معرفة أبعاد الثوب والذي إذا أُلبسه فإذا كان قد أُلبس صفة الشجاعة ، استحق معها وسام الخلق الفاضل . أو ألبس صفة الجبن استحق معه وسامه أيضاً . والمهم في كل الأحوال أن يعلم متى يرتدي هذا الثوب أو ذاك ، ويمارس هذه الصفة أو تلك ، وفي أي ظروف وأي أحوال ،

ذلك ليكون تصرّفه خلقاً فاضلاً ؟ وإن نظرية جذور الأخلاق هذه قدمت الحلّ المنطقي السليم لهذا السؤال أيضاً .

وأما بشأن السؤال : من يملك حقّ وضع الأطر لقوانين وتعاليم الخلق الفاضل ومبادئه ، فإن نظرية جذور الأخلاق لم تُغفل هذا السؤال ، بل أعطته حقّه من الإجابة ووضحت صاحب هذا الحق ، كما أوقدت مشاعل على هذا الطريق .

فقد بينت نظرية جذور الأخلاق أن خَلْق الإنسان على فطرة جذابة وبنيان ظاهري عظيم ما كان عبثاً ، بل أبدعته ربوبية جبارة لإله تأخذ صفاته بمجامع القلوب ، وليس بمقدور أحد من خلق الله الإحاطة بخفايا النفس البشرية وأمراضها وطرق علاجها وتقديم التعاليم الناجعة لإلباسها ثوب الفضيلة على مختلف المستويات إلّا هذا الإله الخالق الربّ العزيز الحكيم . ذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه . فالإنسان نفسه لا يزال يجهد للكشف وبصدد كشف أسرار نفسه وخفاياها حتى الآن .

وضحّت نظرية جذور الأخلاق بالأسلوب العلمي أن حق تقنين الأخلاق الفاضلة ، هو حق لا يملكه أحد من دون الله الخالق العليم . ويستحيل على البشر أن يتفقوا على مبدأ واحد على هذا الطريق دون الإستعانة بوحي السّماء .

وها هنا السّرّ الكامن وراء إختلاف الفلاسفة ، على مّر العصور ، ممّن حاولوا في حدود اجتهادهم ، أن يتبينّوا معالم المروءة عند الإنسان معالم هذا السلوك المثالي في موضوع الأخلاق الفاضلة .

لقد بدت قوى الذرة الستّ في النبات على شكل أحاسيس . وبدت عند الحيوانات على صورة غرائز . وبدت عند الإنسان على صورة هذه الفطرة ذات القوى المتضادة والمعقدة التركيب والتي عبّرت اللغة العربية عنها بلفظ خُلق جمعه أخلاق .

ولم نستعمل لقوى الإنسان لفظ غرائز ، لإقتران قواه بالعقل والإرادة . الأمر الذي أظهر الإنسان وكأنه خلق آخر غير الحيوان والنبات . والذي يُعتبر ظهور هذا الإنسان ، وهو على هذه الصورة ، « عبثاً » ومصادفة ، ولم يكن بفعل تربية وتطوير ربّ عظيم . لا يملك أيّ دليل منطقي مقنع على هذا الإتجاه في تشخيصه . خصوصاً وأن توالي نزول الوحي السماوي منذ بدء تاريخ الإنسان ، وحمل مئات الرسل للتعاليم السماوية المنطوية على تعاليم قائمة على أسس واحدة ، وهادفة إلى غاية واحدة . ألا وهو تطوير الإنسان بإتجاه تعريفه على خالقه ، وتمكينه من الإتصال به عز وجل . كل هذا يؤكد حق هداية الإنسان على أيدي ربّه وخالقه ، وليس على أيدي أحد سواه .

وإنّ نظرية جذور الأخلاق أنارت الطريق على هذا الدّرب . وأعطت الحق لصاحبه وهو الله عز وجل . وبذلك حسمت كل إختلاف في هذا المجال . أعطت هذا الحق الإلهي لله سبحانه بأسلوب قائم على الحجّة والبرهان والإقناع .

فصفة الجُبن هي صفة مذمومة لدى أكثر الناس على سبيل المثال . وإننا إذا حلّلنا صفة الجبن هذه فلا نراها إلا محاولة نكوص وتراجع وإحجام عن القيام بفعل ما . وقد علمنا أن الإقدام والإحجام إنما هما صفتان أساسيتان للذرة . ثم إنّ الإحجام صفة غير مذمومة في حدّ ذاتها . ولا يتأتى ذمّها أو استحسانها إلا بميزان العقل وعلى ضوء مناسبة ما ، كالإحجام عن قتل امرىء في وقت يكون المُحجم فيه قادراً على القيام بعملية القتل . هو إحجام ممدوح في نظر العقل ومنطقه . لكنه جبن في حقيقة مفهومة . ونقول إن الحكم الصحيح على هذا الإحجام لا يصحّ إلا بميزان شريعة السماء التي أنزلها الله البارىء لتصحّح لنا مواقع إقدامنا أو إحجامنا . لتصحّح لنا طريقة ومحل استعمال صفاتنا الطبيعية استعمالاً مناسباً لرقينا وتحقيق الغاية من خلقنا .

أجل لا ننفي دور العقل كأداة تحليل وتمييز . لكننا ننفي دور العقل كأداة حسم بمفرده . فلا حسم في موضوع الأفعال إلا بمساعدة وحي السّماء .

إن أفعال الإنسان النابعة عن صفاته الطبيعية دون تدخل من العقل والشريعة ، لا تزيد عن كونها أفعالاً غريزية شبيهة بما يصدر عن مختلف أنواع الحيوانات أما الأفعال التي تصدر عن إرادة وتصميم ، وتوزن بميزان الشرع ، فلا تكون أفعالاً غريزية بل تدخل في باب الأخلاق الفاضلة . وهذا الموضوع وضحته نظرية جذور الأخلاق وأعانت على الإحاطة بفهمه والإلمام بحقيقته .

إن حدود العقل أن يثبت احتمال وجود شيء واحتمال صحّته . وليس إثبات وجود حقيقة هذا الشيء وصحّته على الوجه اليقيني . وشتان ما بين إحتمال وجود الشيء وما بين وجوده كحقيقة ثابتة . ومن هنا يتأتى دور الوحي السماوي وشرعه كرفيق للعقل البشري لإثبات وجوده أو عدم وجوده . فلابّد والحالة هذه من مساعدة الوحي للعقل لتمكينه من أداء مهمته أداء كاملاً فعالاً . وما نزلت الشرائع السّماوية إلا للقيام بهذا الدور الوسيط .

ولقد جاء نزول القرآن المجيد كأعظم وأكمل تشريع سماوي تحقيقاً لهذا الغرض . ومساعدة للإنسان ليتحلّى بالأخلاق الفاضلة في جميع أفعاله وتصرّفاته ، ترقية للإنسان وتطويراً له على طريق الإتصال بخالقه الذي ربّاه حتى بلغ به هذا المستوى الذي هو عليه في هذا الزمان .

وهكذا ، إذا ساءل إنسان نفسه : لماذا يجب عليّ أن أتحلّى بالخلق الفاضل ؟ فإنه إذا قرأ نظرية جذور الأخلاق التي تضمنّها كتابي هذا ، برويّة وتدبّر شديدين . فإنه سيجد الجواب الشافي عن تسأوله هذا إن شاء العزيز ، والله المستعان . وهو من وراء القصد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سليم الجابي

ماجستير في علم الأديان المقارن

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة موجزة حول نظرية جذور الأخلاق	٩
أهميـة الموضوع	١٥
ظاهرة التكوين والتنويع والتلوين	٢٣
المـادة وخصائصهـا	٢٩
قوتـا الجـذب والدفـع	٣١
قوتـا الإفناء والإبقاء	٤٥
قوتـا الإظهار والإخفاء	٥٣
مجمل نظرية جذور الأخلاق	٦١
الفطـرة البشـرية	٦٧
صورة الفطرة مهتزة على مستوى الأعمال	٧٥
لا يُستثنى العقل من ظاهرة العامل المساعد	٧٩
الربوبية والوحي السمائي	٩١
الفر ق ما بين الخلُق ، والخلُق الفاضل	١٠٣
الوحي السماوي حدّد للحياة البشرية مقصداً أسمى	١٠٧
تعريف الأخلاق الفاضلة	١١٩
أهمية الأسوة العملية نسبة للأخلاق الفاضلة	١٢٣
الأخلاق الفاضلة لا تتصف بالجمود بل بالمرونة	١٢٧
نظرية جذور الأخلاق ونتائجها المنظورة	١٣٣
كلمـة أخيـرة	١٣٧

هذا الكتاب

يتساءل المرء : لماذا يجب عليّ أن أتحلّى بالخُلُقُ الفاضل ؟؟؟

« إن جميع الفلاسفة والمفكرين ، وقد اختلفوا حول تعريف الأخلاق ، واتفّقوا على حدود دائرة عمله ـ لم يفكّر أحد منهم بضرورة التفتيش عن جذور الأخلاق ، ولا عن القوانين الضابطة لها ، ولا عن الجهة التي تملك حقّ وضع هذه الضوابط .

فلم يفتّش أصحاب هذه الاتجّاهات جميعهم عن جذور الأخلاق ، بسبب أنهّم لم يتفقوا على أن الإنسان مادة أصلاً . ثم ان الذين أدركوا أنّه مادة ، لم يربطوا بين قواه ، وقوى الذّرة ، ربطاً جدلياً علمياً . لذلك كله لم يفلح هؤلاء في إيجاد أرضيّة صلبة لموضوع الأخلاق ، وراسخة ، ليقيموا عليها بناءً شامخاً عظيماً . كما لم يوجّه أصحاب هذه الاتجّاهات إلى أنفسهم سؤالاً جادّاً ، وهو هل يملك الإنسان نفسه حقّ وضع أسس وضوابط للتعامل الأخلاقي بين الأفراد ؟ وعلى أي أساس يثبت وجود هذا الحقّ أو عدم وجوده ؟ » .

إن المؤلف في نظريتّه « جذور الأخلاق » ألقى الضّوء وبأسلوب علميٍ على هذه الأمور كلها . ووضّح للعيان « جَدلّية الخلق » بأسلوب فريد وأخّاذ . وإن نظريّته هذه لم يتطرّق إلى بحثها قبله كاتب أو فيلسوف . وإن فيها الجواب الشّافي : لماذا يجب عليّ أن أتحلى بالخلُقُ الفاضل ؟